الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز — الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول — محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

العدد ٦٠٢ — الاثنين ٢٥ من رمضان سنة ١٣٦٩ — ١٠ من يوليه سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

من انطباعات الشرق العربي :

الحياة الاقتصادية فى بلاد البحرين

للأستاذ أحمد طه السنوسى

... البحرين بلد عربى يقع فى شرق شبه الجزيرة العربية وفى غرب الخليج العربى (الفارسى سابقاً) ، وهو عبارة عن مجموعة من الجزر تنفصل عن ساحل قطر والقطيف ، أذكر من هذه الجزر جزيرة البحرين ، وجزيرة المحرق ، وسترة وأم نعسان وغيرها ، وكان يطلق على جزيرة البحرين سابقاً اسم جزيرة أوال ، وفى قديم الزمان كانت بلاد البحرين عربية قحة ، ثم تداولتها الأيدى من الأتراك والإيرانيين ردحاً من الزمن حتى قام فيها بنو خليفة العرب ، حيث استطاعوا بما وهبهم الله من جد ونشاط وحيوية وأنفاس أن يكونوا فيها حكومة عربية بعد أن استحوذوا بسلطانهم عليها .

والبحرين بلد تجارى معروف يعتمد على التجارة والملاحة فى حياته الاقتصادية ، والملاحظ أن بلدان الخليج العربى تتخذ من التجارة أساساً لهذه الحياة تسير على هديه ، وقد دفعتها البيئة إلى خوض غمار تلك التجارة والملاحة نظراً لفقر أراضيها من حيث الزراعة ، ونظراً لوجود الخليج وحركة مرور السفن التجارية بها ، ثم نظراً لوجود حرفة قطف اللؤلؤ الذى يدفع إلى الاتجار به فى الموانئ الجنوبية عبر المحيط الهندى ، ثم لا أنسى أن أشير إلى تلك الروح البحرينية التى تصبغ بصبغة الملاحة وتجنح لخوض غمارها لروحها الدافعة واستعدادها الفطرى ؛ وقد أوجدت حكومة البحرين فى تجارها تنظيماً وقادتهم بعد أن كانت التجارة فوضى قبل ذلك ، مما أدى بالتالى مع بعض تحديدات ووصلت بها إلى الرقى التجارى والتمشى معه فى دروب الكمال ، وهنالك ملاحظة هامة وجد طريفة ؛ وذلك أن التجار فى البحرين وكذلك فى الكويت لا تكاد تعرف لهم اختصاصاً معيناً فى ناحية خاصة أو صنف معين ، فهم يتجرون فى كل شىء ، ويحاولون الربح من كل شىء ؛ فالتاجر الذى يتاجر فى الأقمشة والحبوب والعطور لا يتورع أن يتاجر فى الأدوات الكهربية وفى السيارات ومختلف الآلات ، وكثير منهم من يوكل لشركات أجنبية .. هذه الظاهرة العجيبة تدفعنى إلى القول بأن تجار الخليج العربى مهرة أفذاذ ، وفيهم من الحيوية والجد الكثير ، كما أستنتج تكالبهم على كل ربح وراغبهم فى جمع المال حتى غدت لديهم ثروات طائلة . ولأهمية التجارة والتجار فى البحرين نجد أن لهم عملاً كبيراً ذا أثر بالغ فى توجيه الأحوال العامة والخاصة وفى تسيير الأمور فى البحرين ، فهم الفئة العاملة الثانية بعد الأمراء والشيوخ فى هذا البلد العربى .

والواجب أن تهتم البحرين بالتجارة اهتماماً بالغاً وتسعى لرقيها فى بلادها ؛ لأنها فى اعتقادى موردها الأول وساعدها

الأمين ، على أن موقع البحرين ملائم لكل اللازمة لتلك التجارة ومسوغات نشاطها ..

والبحرين من أهم البلاد العالمية في قطف اللؤلؤ من أعماق المياه ، ويربو عدد المشتغلين به فيها على عشرين ألف نسمة ، والمشتغلون بصيد اللؤلؤ يشتغلون في موسم اللؤلؤ بقطفه ، ثم إذا انقضى هذا الموسم يشتغلون بصيد الأسماك ، ومنها في مياه البحرين أنواع نادرة في جميع أنحاء العالم ، كالزبيدي وغيره مما يجعل لحرفة هذا الصيد في هذا البلد أهمية لا يستهان بها .

ويقول سعادة الأستاذ حافظ وهبة في كتابه عن (جزيرة العرب في القرن العشرين) : « ولقد تقدمت التجارة في البحرين في الاثني عشرة سنة الأخيرة بسبب بناء رصيف للسفن الشراعية ومستودعات للبضاعة ؛ وقد أصبحت البحرين بالنظر إلى مركزها الجغرافي سوقاً هاماً لتجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع المتاجر الأخرى ، فتجار اللؤلؤ من الكويت وقطر والقطيف وسائر السواحل العربية يبيعون فيها ما يجتمع لديهم من اللؤلؤ حيث يصدر بعد ذلك إلى الهند وأوربا ، وقد بلغت قيمة ما صدر منه في سني الرخاء مليونين من الجنيهات ، وأما المتاجر الأخرى فترد البحرين من الهند وأوربا ، ومنها يصدر قسم إلى القطيف وقطر والعقير ومنها إلى الأحساء ونجد » .

وليس اللؤلؤ في البحرين شيئاً ثانوياً ، بل إن له أهمية كبرى ؛ فإن ما يستخرج منه كل عام يربو على ثلاثين مليوناً من الروبيات ، في حين نجد أن ما يستخرج منه في الكويت يبلغ حوالى نصف هذه القيمة ، ويلي ذلك ما يستخرج في عمان فقطر فالقطيف .

ولقد أجمع المختصون على أن لؤلؤ البحرين أجود اللآلئ في العالم ، ولؤلؤ الخليج الذي ذكرناه يدعى اللؤلؤ الطبيعي ، وهذا بالطبع لأنه لا يصنع بل يقطف من أعماق مياه الخليج ، ويوجد إلى جوار ذلك اللؤلؤ الصناعي الذي تنتجه اليابان وتعتمد عليه كمورد هام ، حتى لقد طغى إنتاج اللؤلؤ فيها على اللؤلؤ الطبيعي في البحرين والكويت وغيرهما ، وأكثر اللؤلؤ المستعمل في مصر وأوربا وغيرهما من اللؤلؤ الصناعي ، بيد أن هنالك فارقاً كبيراً بين اللؤلؤين ؛ ذلك لأن الصناعي لا بد من فساده وتغير أشكاله ولو امتد به الزمن ، والطبيعي على عكس ذلك يكون بمثابة الجواهر اللامعة الدائمة الإشراق ،

أي أن منه التحف النادرة التي لا يحمل الأغنياء عليها بملايين الروبيات لاقتنائها وتزيين نسائهم بها ، وليس أدل على عظمة اللآلئ الطبيعية من التحفة التي أحدثها إحداها منذ زمن في معرض العلم وأودعت الآن في المتحف البريطاني ، وكان قاطفها غائصاً من البحرين .

ويقمن بالبحرين أن تهتم بإنشاء معامل لتنظيف اللؤلؤ وتحويره وصوغه في الأشكال الفنية الهندسية للتصدير ؛ وهذه ناحية هامة في العمل على زيادة الارتقاء في ناحية التجارة اللؤلؤية فيها ، والمعروف أن هنالك تنافساً ملحوظاً في تجارة اللؤلؤ بين بلدان الخليج العربي وبين بلاد اليابان ، ولو أن أولي الأمر من العرب اهتموا بالغ الاهتمام بهذه التجارة الرابحة فسوف تنتصر بلدان الخليج بلؤلؤها على اليابان بلا شك ؛ نظراً لأن الأولى ذات لؤلؤ طبيعي ، في حين أن الثانية لؤلؤها صناعي ، ولقد رأينا أن تقوم هيئة خاصة في البحرين للعمل على تنظيم تصديره وتحويره وما إلى ذلك .

ثم إن الأسماك لها أهمية بالغة في البحرين ، ومن الواجب الاهتمام بحفظها وتصديرها معلبة إلى الخارج لتعود على البلاد بمورد معقول ، وهنالك في البحرين بعض الصناعات اليدوية كصناعة الأقمشة والعباءات والحصر وما شابه ذلك ...

ومن الصناعات الهامة في البحرين صناعة بناء السفن ، وهي صناعة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهذا البلد ؛ وذلك يرجع إلى أسباب : منها أن تجارة البحرين في حاجة ماسة إلى سفائن السفن ، ويستلزم قطف اللؤلؤ أيضاً السفن المتعددة ، كما يحتاج إليها صيد السمك الذي يستخدمه الأهالي في قوتهم وغذائهم ، ثم إن البحرين كما يدلنا التاريخ بلد معرض دائماً للهجمات والأخطار والغارات ، فكثيراً ما جاءت إليها هذه وتلك ، وكثيراً ما ذاقت هي نفسها حظاً من تلك الغارات والهجمات ، لذلك لا غرو أن تستخدم البحرين السفن للدفاع عنها مما يضطرها إلى الاهتمام بصناعتها لكل تلك المطالب الهامة التي يقوم عليها محور حياة أهليها وأبنائها ..

ومما تجدر الإشارة إليه أنه ليس هنالك مشكلة اقتصادية في البحرين خاصة بمياه الشرب كما في الكويت ؛ وذلك لأن لديها سفناً تأتي لها بها من الينابيع العذبة التي فجرها الله تعالى في الخليج اللج الأجاج ، ثم من الآبار بطرق رفع متباينة ملائمة وإن كانت أولية ، لكن لا يحسن السكوت تجاه مياه الشرب في هذا البلد ، فيقمن أن تحسن الوسائل فيه ،

وخاصة وأن الله خصه بميزة الينابيع العذبة في مياهه المالحة مما لا يوجد في غيره من البلدان .

وتستورد البحرين الأرز والمنسوجات والشاي والسكر والتمر والسمن والأغنام والتوابل وغيرها ، ويتحدث السيد حافظ وهبه سفير المملكة السعودية في بريطانيا عن مواصلات البحرين ومن تجارة الخليج في كتابه السالف الذكر ، فيقول : « وتنقل السلع التجارية من الهند بواسطة الشركة الانجليزية الهندية ، وهي تكاد تحتكر تجارة الخليج ، وتمر أسبوعياً بالبحرين في طريقها إلى البصرة وفي رجوعها إلى بمباي ، وقد أصبحت البحرين منذ سنين مركزاً من مراكز الطيران المدني ، فأصبحت الطائرات تمر بها كل أسبوع في طريقها إلى الهند أو أوربا ، وأصبح في وسع المسافر أن يصل إليها في أربعة أيام من لندن ، ويوم ونصف من الهند أو مصر » .

« وقد قامت الزراعة في البحرين وتقدمت ، وخاصة في السنوات الأخيرة نظراً لحفر كثير من الآبار الارتوازية التي أرجو أن تعم ويزيد الأغنياء من حفر أمثالها ويتجه عدد كبير من الأهالي إلى هذه الحرفة ، فيزرعون مختلف أنواع البقول والخضراوات ، ولكن الفاكهة قليلة هناك ويوجد منها التمر والليمون ، كما يزرع الطماطم والبطيخ وهو من الفاكهة البحرينية ، واللوز البحري والاعمول بأنواعها وتهتم بها النساء للزينة بها واستنشاق عبيرها واستخدامها في تعطير الفراش والغرف حين يهدأ السكون ويقبل الليل بسكونه وتنسمه الجميل ... »

وتتخذ البحرينيون (ويسمون البحارنة أيضاً) من التمر غذاء أساسياً ، والأرز غذاؤهم الرئيسي كالكويت وأندونيسيا ومعظم البلاد الأسيوية ، وأرى أن أوجه الاهتمام إلى زراعة هذا الأرز في أرض البحرين نظراً لأهميته لهم من ناحية الغذاء ، واعتماداً على ارتقاء الزراعة رويداً رويداً فيها ، تلك الزراعة التي اعتمدت على حفر المزروعات المثمرة وعلى التوجيه للصرف وإرشادات المختصين من مصر مما ساعد على هذا التقدم وذلك الارتقاء .

وإني لأنبه إلى أهمية الزراعة ووجوب اتجاه الكثيرين من البحارنة العرب فيها ، فيزرعون بجد ويعملون بحماس في أرضهم ، ولا يكلون أو يسأمون منها لينتجوا شتى المحصولات وليلقوا بالزراعة ما يقوم بالتجارة وحركتها ، كما يمكن بهم أن يهتموا بالثروة الحيوانية فهي إلى جوار الثروة الزراعية مورد هام من موارد الرزق والرقي الاقتصادي ، وأسوق هنا ما قاله العلامة الأستاذ عزيز خانكي بك في كتابه « معجزة من معجزات الإصلاح الزراعي » : (إذا ما ثبت الفلاح في الأرض هو وزوجته وبناته وتكاثروا وتناسلوا تتكون مع الزمن ثروة كبيرة تمكث في الأرض ولا تهجرها إلى المدن ، وإذا ما وجه الفلاح وزوجته وأولاده وبناته جهودهم إلى الأرض واستغلوها ضاعفوا غلتها فيستفيدون ويفيدون البلاد) .

ومن ناحية النقد أذكر أن النقد في البحرين كما في الكويت يقوم على العملة الهندية وروبياتها وآناتها وبيزاتها (يستحسن الرجوع إلى مقالنا عن الحياة الاقتصادية في الكويت المنشور في الثقافة الغراء) .

.. مما سلف نرى أن الحالة الاقتصادية في البحرين منتعشة حتى إن ثروتها القومية تقدر بآلاف الملايين من الروبيات ، ولكن البريطانيين لا يذرون هذه الآلاف وتلك الملايين ليتمتع أهلها بها ، بل يستحوذون عليها لينعموا بها ، فهم أهله والبحرين الفرش ولهم الروبية ولها الآنة ولهم الورق ولها البيزة والليم ! هذا علاوة على استغلالهم لمركز البحرين الاستراتيجي وسيادتهم على مركزها السياسي ونفوذهم وسلطانهم في بلد خليجي من أهم الخلجان ومن أهم المواقع في السلم والحرب ، ثم لا ننسى أرباحهم الطائلة من بترول البحرين واعتمادهم على هذا البترول في أحوالهم الاقتصادية والسياسية والحربية ..

.. إني لا أستطيع أن أمر مر الكرام على هذه الناحية القاتمة دون أن ألتفت إلى أبناء هذا العرين أن يحركوا كل هذا ، وأن يكونوا على علم تام بهذه الثروات العربية ومنافذها واليد التي تستحوذ عليها ... إن كثيرين منا لا يعرفون شيئاً عن هذه البلاد العربية الصميمة ، وقد آن الأوان وحان الوقت كي يفتحوا آذانهم ويصوبوا عيونهم .. والإدراك والتبصر أول الغيث ، وأول هذا الأخير قطر ، وإنه لمن أكبر ما يشين أن نهمل الإلمام بكل شيء في عالمنا العربي كبيره ودقيقه ، ويجب علينا أن نخرج أنفسنا في عهد جديد ، وآنذاك نستيقظ من جدارتنا بالحياة الحقة والمطالبة بالحقوق والأخذ بصالح ثرواتنا وتوجيهها إلى الأمام ، التوجهة بالتالي إلى أمام وأمام ... !

أحمد طه الشريمي

نشأة التاريخ الاسلامى والطبرى

— ١ —

للأستاذ على أدهم

ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، وجمع أشتات القبائل العربية المتناثرة في شبه الجزيرة العربية ، وانتشر بسرعة غير مسبوقة في التاريخ ، ونهضت ظلاله الوارفة على بلاد الشام وإيران والسند ومصر وشمال إفريقية والأندلس ، وأثار في كل ناحية حل بها العقول ، وحرك القلوب ، واستنهض العزائم ، واستجاش الهمم ، والأعمال الجليلة والمساعي الباهرة والمواقف الرائعة تستوجب الإعجاب والتقدير من ناحية ، وتبعث حب المفاخرة بها والرغبة في تخليدها من ناحية أخرى ، وتمهد هذا السبيل وتفسح المجال لظهور الرجال الذين ينقطعون إلى جمع أخبارها ، واستقصاء أحداثها ، ووصف أحوالها وملابساتها ، ومن هؤلاء الرجال الرواة والإخباريون والمؤرخون والشعراء ؛ ولنا أن نلاحظ أنه لما هدأت ثورة الغزوات الإسلامية الظافرة وتوقفت حركة الفتوح المتوالية كثر القصاصون والرواة والمؤرخون الذين يقصون أخبارها ، ويتحدثون عن وقائعها ومشاهدها ويصفون أبطالها وقادتها .

وقد كانت الأمية غالبة على العرب في جاهليتهم ، ولما كانت معلوماتهم التاريخية قليلة محدودة بالرغم مما عرف عنهم من صفاء الخاطر وقوة الذاكرة ، وكانت هذه المعلومات تكاد تقتصر على معرفة سلاسل أنسابهم التي يؤكدون بها عراقة أصولهم ، وإلمامهم بما كان يسمى « أيام العرب » ، وهي أخبار الحروب الداخلية التي نشبت بين القبائل المختلفة مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء وما إلى ذلك من الوقائع المحلية ، يضاف إلى ذلك أخبار القبائل البائدة التي كانوا يتناقلونها ، مثل أخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، وبعض ما انتهى إليهم من حوادث التوراة والتلمود عن أخبار اليهود أو قسس النصارى ، وإلمام من الأخبار المتفرقة عن الأمم التي جاورتهم واحتكت بهم .

ولم يكن عندهم بطبيعة الحال مؤلفات تاريخية ولا مدونات للحوادث والكوائن ، ويمكن أن نستثنى من ذلك العرب الذين استطاعوا أن يأخذوا في جاهليتهم بنصيب من الاستقرار والحضارة ، مثل عرب اليمن وعرب الحيرة ؛ فقد ترك أهل اليمن طرفاً من أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة منقوشة بالخط المسند على قصورهم ومبانيهم في مختلف مخالفهم ، وخلف أهل الحيرة أخبارهم وأنسابهم ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم ، وما إلى ذلك من أمورهم في مدونات استودعوها بيع الحيرة .

ولما كان النبي العربي هو باعث النهضة ومحركها الأول ؛ فمن الطبيعي والمعقول أن تصبح سيرته أول موضوع التاريخ الإسلامي ، وأن يتبع ذلك في الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء الذين حاربوا تحت لوائه ، واستشهدوا في سبيل دعوته ، وأبلوا بلاء حسناً في توطيدها ، وأزالوا العقبات في طريق نشرها وإذاعتها وتقبلها .

والواقع أن التاريخ الإسلامي نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب أمثال هيرودوت وثوكيديدس عند اليونان ، أو ليتوس ليفيوس وتاسيتوس عند الرومان ، وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامي وحاجاته وخصائصه وتطوراته .

ومن المزايا التي اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة في تسجيل الحوادث وتأريخها بالسنة والشهر واليوم ، وينقل مرجليوث في كتابه عن مؤرخي العرب عن بكل قوله : « إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوربا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية » ! وقد ابتدأ التاريخ بالهجرة في عهد ابن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

والخصلة الثانية التي امتاز بها التاريخ الإسلامي هي الإسناد ، وهو إرجاع الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفي سبيل تحري صحة الأحاديث المنسوبة إلى النبي نشأ نوع من التحقيق يقوم على فحص سلسلة الأسناد ، وتتبع كيف وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال

الرواية ، وكان دارسو الحديث في بادئ الأمر هم المؤرخين ، ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث ، وصار الأخباري شخصاً آخر غير المحدث ، ولكنه أقل منه في المنزلة والاعتبار .

ولم تبدأ حركة كتابة التاريخ الإسلامي إلا في أواخر عهد الدولة الأموية ، ولعل السبب في هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد على هذه الذاكرة الواعية القوية ، يضاف إلى ذلك اعتبار آخر لحظه مرجليوث وربما كان له أهميته ، وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلي مكانة الحفاظ ، ويجعل الحاجة إليهم ماسة ؛ ووظيفة الحافظ هي أن يكون عنده معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التي يرويها ، وهذه المكانة التي بلغها الحافظ كان مما يضعفها من غير شك إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من الكتب ، وقد تعبوا هم في تحصيلها والتثبت من صحتها ، وكان يهم هؤلاء الحفاظ أن يظلوا مرجعاً للتحصيل ، على أن المادة التي بدأت تكتب في عهد العباسيين لم تؤثر في مكانة الحفاظ ، وأكثر مؤلفي الكتب أنفسهم كانوا من هذه الطبقة ، وأرجح أن سبب انصرافهم إلى الكتابة والتدوين هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل الذاكرات حتى القوية منها تنوء تحت أثقالها ، وقد أوجد الحفاظ حلاً وسطاً ، وهو طريقة الإجازة ، وهي أن يقرأ القارئ الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية والاستعداد لذلك ، وفي عصر الطبري كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير ، وكان العلم المستمد من الكتب ينتقص ويطعن في قيمته ويفضل عليه العلم المنقول بالسماع ، فهناك إذاً أسباب أبطأت بحركة الكتابة ؛ أبرزها أن وظيفة الحافظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون وثائق لا يعتمد عليها لأنها قابلة للتزوير والتزييف .

وقد تغير هذا النوع من التفكير مع الزمن ، وقد استلزم تفسير القرآن ضروباً من المعارف التاريخية ، فالقرآن يشير إلى بعض الحوادث المعاصرة لنزوله ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات النزول ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث في صورة مبهمة ، وتكتفي بالإيجاز عن التفصيل لتستخرج العبرة أو تستنبط الحكم والقاعدة ، والذين نزلت فيهم الآية كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموحية للنزول ، ويعرفون مناسباته وملابساته ، ولكن الجيل التالي كان مضطراً إلى معرفة تلك التفصيلات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى التاريخ وإلى دراسة الظروف التي ولد فيها الإسلام ليقرأوا القرآن عن فهم وبصيرة .

وفي القرآن كذلك إشارات تاريخية ، ولمحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء الأقدمين ، والذي يريد أن يتفقه في الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود لتزداد معلوماته وتتسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب فيما أعلم محرماً أو ممنوعاً ، ولكنه لم يكن في الوقت نفسه مما يشجع عليه ، ومن ناحية أخرى كان اليهود أو المسيحيون الذين دخلوا في الدين الإسلامي يميلون إلى الاضطلاع بما في ذاكرتهم عن الحوادث التي أشار إليها القرآن إشارات سريعة خاطفة لينفذ إلى الغرض والثابت ، وقد اقتضى ذلك التوسع في معرفة التاريخ والاستكثار من أخبار الأنبياء المتقدمين والأمم الواردة ذكرها في القرآن .

ومن أسباب التوسع في التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء في استماع أخبار الملوك السابقين لينتفعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياساتهم . ذكر المسعودي أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، وكذلك كان المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياستهم ، ذكر عنه في[1] الجزء الثاني من كتاب الإمامة والسياسة أنه حينما هم بقتل أبي مسلم استدعى إسحق بن مسلم العقيلي وقال له : « حدثني عن الملك الذي كنت حدثتني عنه بحران » ، فقال له : « نعم ، أكرمك الله ، أخبرني أبي عن حصين بن المنذر أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له سابور الأكبر كان له وزير ناصح قد أخذ أدباً من آداب

(١) ونص هذه القصة موجودة في الجزء الثالث من البيان والتبيين للجاحظ .

الملوك وعاب ذلك فيهم في الدين » وقص عليه الحديث ، وخلاصته أن سابور أنفذ وزيره إلى خراسان يدعو أهلها إلى طاعته فتمنى الوزير وسعى في تحبيب الناس به ، ودعاهم إلى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله فلما وجهوه إليه بأعيان خراسان . فلما رجعوا بقيهم ، لم يجيبوا إلا ورأس الوزير بين أيديهم ، فاضطروا إلى طاعة سابور ، فلما سمع المنصور هذه القصة بما فيها من التشابه بين سلوك الوزير وسلوك أبي مسلم أطرق مليا ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلما

وكان تقدير عطاء الجند يقتضي معرفة الأنساب ، وكذلك رغبة الدولة في معرفة البلاد التي فتحت صلحاً أو التي افتتحت عنوة أو التي فتحت بعد ، فقد كان لكل حالة من هذه الحالات حكم خاص من ناحية فرض الجزية وتقدير الخراج ، وبدون تدوين التاريخ كانت المحافظة على هذه الحقوق تكاد تكون غير ميسورة ، وبغير المعرفة التاريخية لا يمكن التثبت من صحة المتعهدات .

وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبحت الدواوين عربية ، وقد شجع نقل كتابة الدواوين إلى العربية على [illegible] وانتشارها ، وأوجد وظيفة « الكاتب » الذي أصبحت معلوماته واسعة مستفيضة ، ومهد ذلك السبيل لظهور أساليب النثر العربي ، وقد أصبح الكاتب في العصور المتأخرة هو المؤرخ ، لا لأنه أعلم ببواطن الأمور وخفايا السياسات ، وإنما لأنه قد تدرب على ممارسة الكتابة في الموضوعات المختلفة .

وأطلق اسم « القصاص » على الأشخاص الذين كانوا يعنون بجمع الأخبار الشائقة التي تثير حب الاستطلاع ، وكانوا يسمونهم كذلك الرواة والأخباريين ، وكانوا يعقدون حلقات في المساجد وتتحلق حولهم الناس ، وكان كثير من هذه الأخبار يدور حول شخصية النبي وأبطال الإسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن ، وبعض هؤلاء الرواة المتقدمين قد اتهم بالكذب والتلفيق والانتحال والاختراع ، ففي ترجمة عوانة بن الحكم الأخباري المتوفى سنة سبع وأربعين ومائة — كما روى لنا ياقوت في الجزء السادس عشر من معجمه — « أن عوانة بن الحكم كان عثمانياً وكان يضع أخباراً لبني أمية » ويقال إنه أنشد مرة بيتين من الشعر فقيل له : لمن هما ؟ فقال : « أنا ركبت الحديث بعضاً مني للإسناد ، ولست أراكم تطوفون منه في الشعر » وفي رواية أخرى أنه كان علوي النزعة .

وحاجة النظام القضائي جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعي معرفة الأعمال الخاصة بذلك . وقد كانت دراسة الأحاديث مما ساعد على نشوء علم الجغرافيا وفن التراجم ، وذلك لأن طريقة اختبار صحة الأحاديث كانت تدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم .

ويقال إن أول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هجرية ؛ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ هـ ، وقد ألف محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هجرية كتاباً في المغازي . ومهما يكن من الأمر فإن هذه الكتب قد فقدت ، وأقدم ما وصل إلينا هو سيرة النبي لابن هشام المتوفى سنة ٢١٣ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام وهي منقولة عن ابن إسحق .

واشتغال المسلمين في ضرب الخراج اضطرهم إلى تدوين أخبار فتوح البلدان مثل كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ وفتوح بيت المقدس وما إلى ذلك ، ومن أشهر كتب فتوح البلدان كتاب البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية .

وأقدم كتب الطبقات التي وصلت إلينا كتاب الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، وهو يحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء ، وقد ألفت كتب على نمطه في طبقات الشعراء وطبقات الأدباء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الصناع والمغنين وغيرهم مما جعل كتب التراجم موفورة في الأدب العربي .

ونرى من ذلك أن كتابة التاريخ نشطت وازدهرت وتنوعت في خلال القرن الثاني الهجري ؛ ومن أشهر مؤرخي

(البقية على صفحة ٩٤)

الوجه الآخر من الحيـــــاة

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

كثيراً ما يشعر المرء بالتردد أمام أحداث الحياة وعند مفترقات الطرق ، بل كثيراً ما تظهر عليه أمارات الخوف والقلق في أمثال هذه المواقف . وله الحق في ذلك ، لأنه مهما بلغت شجاعة الإنسان وسط هذه القواصف العاتية التي تعرض له من حين إلى حين سيكون مضطراً في النهاية إلى الإحساس بالرعدة ، وإلى أن تسري في بدنه القشعريرة ، وإلى أن يثور في قلبه الشجن . فكلنا يعرف أن العمر يمضي بنا إلى الأمام ولا يعود إلى الخلف مرة واحدة ، وأن العيش الإنساني محدود معدود علينا بالساعة واليوم والدقيقة ، وأنه من المستحيل على دورة الأفلاك أن تتوقف برهة في سيرها المحتوم ... وأمام كل هذا يقف الإنسان بمفرده على سطح الأرض مثل الغريب النازح من بلد بعيد ، فلا حول له ولا طول ، ولا جاه ولا باع . ومن أجل هذا [illegible] أمام النوائب ، ويطيل تردده قبل أن يختار الوجهة التي يقصدها أو الطريق الذي يحبه . فلا بد له أن يفكر ألف مرة قبل أن يقول « نعم » ، أو أن يقول « لا » إذا ما تفتحت أمام عينيه مسالك العيش .

ولا يعنيني هاهنا أن أنفي فكرة الحرية بالنسبة إلى الإنسان ، ولكنني أستطيع أن أزعم — وأنا متيقن مما أقول — أن الإنسان يبدأ من حالة معينة ، وأنه يتخذ خطة لسيره في الحياة ابتداء من مكان بالذات . فالإنسان قد أحس بنفسه وسط مظاهر الوجود وهي موضوعة وضعاً خاصاً ، ثم شعر بالباعث إلى الانطلاق وبالرغبة في السير ، فكأنما سيق إلى المعركة وهو مربوط بالسلاسل الثقيلة وراء ظهره وقيل له تقدم . ومعنى هذا أنه نظر حواليه فوجد العالم غريباً عليه ، ووجد الأوضاع مصنوعة بغير يده ، ووجد الحالة منافية لما يرجوه ويرتاح إليه . وعندئذ بدأ العراك وبزغت إرادة التحرر . لأن الضرورات التي وُلدت مع الإنسان قد أشعرته منذ الساعة الأولى بمعنى الخروج عليها والثورة ضدها ، وأفهمته في الوقت نفسه حرية العمل الفردي الشاذ . ولم يكن يأتي في وقت من الأوقات عملاً غريباً حتى يرى نفسه تحت رحمة المقادير التي تلعب به وتضغط عليه وتوجه التأديب والنكال .

فالحياة مُراهنة مخيفة ، والطريق مظلم موحش ، والمستقبل غامض مجهول ، والظروف القائمة لا تريح بالاً ولا تطمئن الوحوش الفتاكة فضلاً عن الآدميين البسطاء ، ويلتفت الإنسان عن يمين ويلتفت عن شمال ، فإذا هو وحده في معركة العيش المسعورة ، يقرر مصيره بمفرده ويعلن إرادته وحده ويدبر شئون حياته حسب ما توحي إليه الغريزة والشعور [illegible] أشد ما شاهد من القوى المتضاربة ومن الضمير [illegible] أن يتريث ، فيمضي يتشدد في ضوء تفكيره ، وفي هدى المشاعر التي تجول بخاطره . فهناك مصادفات قد تسعده ، وهناك ملابسات قد تضيع عليه ، وهناك خير لا ينبغي أن يفرط فيه إذا بات حاضراً لديه . بيد أن الخيار لازم في أكثر الأوقات ، وقلما يستطيع أن يجمع بين حال وحال أو بين شيئين من الأشياء التي تعرض له وتعترض عليه . وتلك هي أزمة الوجود الإنساني التي يلازمه في أغلب الأحيان اتخاذ وجه واحد والمضيّ في طريق دون غيره .

ونستطيع أن نجعل من هذه الأقوال العادية فلسفة بقليل من التحوير في الألفاظ والعبارات . فهناك إمكانيات أمام الإنسان عند تحقيق وجوده ، وهو مضطر إلى اختيار واحدة من هذه الإمكانيات على بعض ، أما إذا تمسك بكل هذه الإمكانيات وأغراه الطمع بأن يستحوذ عليها جميعاً

فيصعب عليه التوفيق بين مطالب نفسه المترعة وقلبه الطموح، وبين الحياة الناعمة الماثلة في هذه الظواهر المجسمة داخل نطاق الكون. فلا تستطيع أنت مثلاً السفر إلى أمريكا وانجلترا وفرنسا وسويسرا في آن معاً، ولا بد لك إذا شئت الارتحال من مصر أن تختار واحدة من هذه الدول. وبذلك تقرر مصيرك وتلتزم لنفسك وجهاً واحداً من وجوه الحياة. فالحياة لا تحتمل أكثر من وجه واحد ولا سبيل إلى أن تتعدد وجوهها مهما تكاثرت مطامع الإنسان. وعلى الرغم من أن الإمكانيات الحيوية تتراءى أمام عينيه كما تتمثل في مخيلته بوفرة ظاهرة، فهو لا يملك الاستمتاع بها كلها ويضطر دائماً إلى الاكتفاء بواحدة. ومن هذه الناحية ينبع كل ما نعرفه في الأخلاق من القيم، فتظهر الأثرة والتضحية وحسن النية والشجاعة الأدبية.

وقبل كل هذه الظاهرات النفسية لدى الإنسان، أو معها، يتجلى في الفرد ما جئنا على ذكره من الخوف والتردد والقلق. لأن اختيار سبيل [illegible] درجة امتيازه وأفضليته، معناه أنك ستنتقل [illegible] المحدود في حياة خاصة لا تعرف منها [illegible] أيضاً أنك ستفوت على نفسك فرصاً أخرى يرجى منها الخير ويحتمل فيها النفع، وقد تحقق لك ما تسعى إليه من المطالب. فتظهر من جراء ذلك كله معاني الخوف في قلبك، وترتسم ملامح القلق والفزع على وجهك. وهذا طبيعي جداً ما دمت بإزاء مصيرك الذي تقرره وحياتك التي تنشئها وأعمالك التي تحدده بإرادتك ومشيئتك وهواك. وكلما كان الإنسان على علم بقيمة ما يفعل ومدركاً لخطورة ما يأتيه كان أعلى درجة في الإحساس بالمشكلة. وغالباً ما يشعر في أمثال هذه المواقف بأنه صاحب الحق الأول والأخير في رسم حياته، وأنه يخلق نفسه بنفسه وينسج وجوده على نول أمانيه. وبهذا الصنيع من جانبه يعلن الفرد عن كيانه أجمعه ويصرح بعزلته ويبدي وطاقاته أمام الناس. بل بهذا الصنيع يؤكد الإنسان وجوده على الأرض التي يشعر بأنه من حقه أن يجرب فيها مظاهرها المختلفة ويطلها على وجوهها المتباينة.

والخطأ في تصور الإنسان إنما يأتي من اعتقاده في شيئين: أولهما أنه يحس عند مضي زمن قليل بأن هذه الوجهة التي اختارها كانت مرسومة له منذ الأبد في لوح محفوظ، وأنه يمضي في الحياة تبعاً لخطة جارية على العباد، مفروضة عليهم فرضاً. وثانيهما هو اعتقاده في أن الوجود ذو مناح كثيرة، وأن اختياره لمنحى واحد من هذه المناحي لا يعني فوات بقية المناحي عليه. أو بعبارة أخرى يجد الإنسان في قرارة نفسه ميلاً إلى الاعتقاد بأن السبل المختلفة الأخرى قائمة موجودة على نحو ما توجد السبل التي ينتهجها ويقوم. وهذان الاعتقادان هما محض تصور، ولا أساس لهما من الصحة. لأننا إذا نظرنا إلى الجانب الأول وهو اعتقاد الناس في حتمية التاريخ النفسي وجدناه ينبع من جملة أسس ثلاثة: أولها شعور الإنسان بسلطان التقدير فيما مضى من الأحداث، وما صار جزءاً من التاريخ الروحي. وثانيها أن الإنسان لا يريد أن يصدق أنه من [illegible] أن يوجد بمحض إرادته يوماً ثالثاً من [illegible] وأن [illegible] التاريخ ويجري الأمور على النحو الذي [illegible]. [illegible] نوع من الضعف الداخلي في قلب الإنسان يجعله عاجزاً من الاطمئنان إلى ما يصنعه بيديه ويأتيه برغبته وهواه. ويحس الفرد بأنه محتاج إلى سند أقوى منه حتى تثبت الأمور بشكل معين. وكأنما يستكثر على نفسه توجيه المسائل العامة بعقله وحده، ويستهول الانفراد بالسلطة على هذا الكوكب النائي. ومن هنا نراه يلجأ عند التقدير والفعل إلى قوة مجهولة يسبغ عليها من خياله وأوهامه ما يجعلها ذات الشأن الأول في تصريف الأمور. وثالث هذه الأسس الثلاثة — وهو أساس مترتب على الأساس الثاني — أن الإنسان لا يريد أن يشغل نفسه كثيراً بأحداث الماضي، ولا أن يوقع على نفسه مسئولية الوقائع التي جرت، ويحب أن يخلي عن كاهله إحساسه بالخطأ. فيزعم أن الأحداث لم تقع على نحو ما أراد هو، وإنما تبعاً لمشيئة عليا تسيطر على الكون وتوجه دفة الأمور فيه. فهو من أجل أن يخلص نفسه من تبعة الآراء التي يبديها والأعمال التي يأتيها، تراه

يخرج مبدأ الحتمية التي لا تجعل مجالاً للحديث عن الإمكان في تفسير معالم التاريخ. ولا يمكن أن نفهم الحتمية إلا بمعنى واحد، وهو أن الإنسان يريد أن يعفي نفسه من اللائمة إذا تطورت الأمور على النحو الذي لا يريده. ومن هنا نراه يلصق الشائعة التي تحدث بين جدران هذا الكون إلى القوة العليا ويزعم أن ثمة إرادة تسيره أثناء إتيانه الأعمال المختلفة، فلا يكون عليه ذنب ولا يركبه وزر.

أما الاعتقاد الآخر وهو القول بوجود الناس الكثيرة في الحياة أو الوجوه المتعددة التي تتشكل في مقطعها سلسلة الحوادث التاريخية، فمصدر الخطأ فيه أن الإنسان يتصف بالطمع والشره الذي يجعله دائماً في نقمة على البيئة التي يرتبط بها. فهو يتصور لذلك أنه إذا اختار وجهة من الوجهات أو سار في سبيل من السبل كان في استطاعته بعد ذلك أن يعود إلى الحالة القديمة إذا أخطأه التوفيق ولم يحقق وجوده على نحو ما كان يحب. ولكن هيهات أن يصدق مثل هذا التصور... لأنك تختار وجهاً واحداً يحدد وجودك في زمن معين ولا تستطيع في هذا الزمن نفسه أن تجمع [illegible] وجهين من الوجود أو أن تعود إلى وجهة أخرى من وجوه العيش إلا بعد التنازل عن الوجه الذي أنت عليه.

ولذلك نقول إنه لا يوجد للحياة غير وجه واحد هو الذي تسير عليه، وكل ما عداه تخيل محض ووهم خالص. والطمع الذي يعشش في قلب الإنسان هو مصدر هذه الخيالات والأوهام. وقد يكون له أصل آخر، وهو أن الإنسان لا يرى الناس جميعاً على نمط واحد فيحسب أنه قادر على أن يعيش مثلهم وأن يتقلب بين نماذج وجودهم. مع أنه مربوط بالحبال، مشدود إلى حياته الثابتة الناجمة عن ملابسات أيامه الخالية. فكل إنسان هو ابن ماضيه وأسير أحواله وعاداته في الزمن المبكر على الزمن الذي يعيش فيه. وإذا كان هناك إنسان متخصص في الطب أو الهندسة من عمره فمعنى ذلك أنه سيظل إلى أخريات أيامه متأثراً بهذه المرحلة من حياته التي تعلم فيها الطب أو الهندسة. ويظهر لنا من الدراسات النفسية أنه يصعب التخلص من محيط الآثار الباقية في النفس منذ الصغر. كما تكشف لنا علوم الاجتماع والجغرافيا الجنسية عن الطابع العامة التي تؤثر في كيان الأمة وتعين مستقبلها بواسطة البحث في جملة الخصائص القديمة المتأصلة في نفسية الشعب.

ومعنى هذا أن الفرد لا يمكنه أن يخرج من الحدود التي أحاطت بوجوده الخاص ولا يستطيع أن يجمع بين وجهين من وجوه الحياة. ولا بد له من الاختيار. وقد نظن أنه من القيد بالنسبة إلى الإنسان أن يستشير سواه عندما يختار، ولكننا لو عددنا أن غيرنا من الناس لم يعش سوى وجوده الخاص، ولم يعرف من الحياة سوى وجه واحد، فإننا سوف نشك كثيراً في قيمة النصيحة. لأن الخبرة لا تدل على أن إنساناً قد عاش أكثر من نمط واحد أو تقلب بين وجوه مختلفة. ومهما كانت تجاربه في الحياة، ومهما كثرت أحواله واختلفت شئونه وطال عمره، فليس معنى هذا أنه عاش [illegible] من وجه واحد من وجوه الناس في فترة معينة من [illegible] خلاصة ما رآه في حالتين مختلفتين في زمنين مختلفين [illegible] فليس معنى هذا أنه يعرف ما يمكن أن يكون مصير إنسان سواه إذا مر بنفس الحالتين في زمنين آخرين. فما أجربه وأنا شاب يختلف عما أجربه وأنا في سن الشيخوخة، وما أمر به وعمري عشرون سنة يخالف ما أمر به وعمري يربى على الخمسين، ولو كان الشيء الذي أمر به في الحالين واحداً. فإذا سألت رجلاً مسناً عما إذا كان ينصح لي بالزواج أم لا، فمن الضروري أن أراعي كل ما يلي: أولاً ينبغي أن ألاحظ المشكلات التي أدت إلى عدم نجاحه إذا كان متزوجاً وصلته بالوجه الآخر من الحياة إذا كان عزباً. كذلك ألاحظ أنه لم يذق الحالتين معاً أو إذا أحس بهما فلا يمكن أن يكون قد عاشهما في نفس الزمن. فقد يكون متأثراً بحنان زوجته وهو في سن الشيخوخة، ولو كان قد تزوجها في شباب التوثب لكان موقفه منه غير هذا الموقف الذي ينتج عن الشفقة والبأس أكثر مما ينتج من أي شيء آخر.

كذلك ألاحظ الوقت الذي تزوج فيه والوقت الذي أختاره أنا للزواج . فقد تكون ظروفه التي أسعدته أو التي أضرّت به غير مشابهة لظروفي . وقد تكون سني غير مقاربة للسن التي تزوج فيها .. وهكذا تتبين صعوبة الاستفادة من تجارب الآخرين ونصائحهم .

فالإنسان ملزم إذاً بأن يعيش وجوده الخاص على نحو ما يريد وعلى الصورة التي توافقه من غير أن يكون له ضابط سوى روحه وظروفه وممكنات عيشه . وبذلك تصير حياة الإنسان بأكملها تجربة من التجارب فلا يُستفاد منها ، ولا تستفيد هي من الطريق الذي سارت فيه حيوات الآخرين من قبل . أو من هنا يمكن وصف حياة الإنسان بأنها مخاطرة أولى من نوعها . وحياة كل فرد من الأفراد هي تجربة من طراز يخالف الطرز الباقية في الجوهر والشكل على السواء . ومهما تشابهت الأحداث والوقائع فلا نحسبن أنها متكررة ، ولا نظنن عودتها من جديد ، وإنما لاحظ الفروق الدقيقة وتأمل الهوات الفاصلة لتعرف مقدار الفارق بين حادثة وحادثة أو بين واقعة وأخرى .

ولهذا يحق للإنسان أن يشعر بأزمة الوجود وأن يحس بخطورة الحياة ما دامت غير قابلة للتكرار والعودة مرة أخرى . وإذا كان الإنسان بصدد تقرير لمصيره ، واختيار سبيل من سبل العيش فلا بد من أن نراه قلقاً مترددًا تبعاً لما يراه في الوجود من محدودية العيش ونتيجة لما يحس به في أعماق نفسه من استحالة الشيء على أكثر من نحو منفرد .

الحياة تجربة يعيشها بنفسه ، ويدفع ثمنها من عمره ، ويقضي على نفسه بنتائجها مهما كان نصيب الخير والشر فيها . وقد أرادت الحياة ألا تدع مجالاً لتوضيح هذه الحقيقة في ذهنه حتى لا تتعطل حياته . فصنعت شيئين : (أولاً) جعلته يحس بأن الحياة تتقدم عرضاً لا طولاً ، ودفعت الإنسان إلى الاعتقاد بأنها تسير على شكل أولي بحيث تتأدى الحركات والأعمال في مظهر من الحشود ، فهي تبدو أمام عينيه كما لو كانت تتسع في حركتها من الجانبين على هيئة تتسع وتنمو . وبذلك ينسى الإنسان معنى الموت ، ولا تخطر على باله ، بين معالم التكامل ، صورة التفكك والانحلال . بينما لا تجد الشخصية الواعية إلى تدرك حقيقة الحركة ، وتعرف معنى الوجود ، وتستشعر حياتها معلقة من أطرافها بخيط واه ... أقول لا تجد مثل هذه الشخصية في الحياة غير مظهر السير التقدمي ، ولا تعرف غير معنى الخطو المندفع ، ولا ترى في الوجود غير انبثاق طولي متصل . فالوجود لا يسمح بالإعادة ولا يتيح فرصة للتكرار . ومن هنا تأتي النزعة التشاؤمية ، وتتولد الروح اليائسة ، ويهب ذلك الإنسان من باطن العالم الأرضي لتصرخ في قبة السماء معلنة عجزها (كما في العبادات الدينية) أو تمردها (كما في الفلسفات اليسارية) : وهي في الحالين لا تكسب ولا تخسر ، وإنما تمضي الوقت وتجد شاغلاً في ذلك كله من التفكير في مأساة المصير الإنساني .

و(ثانياً) أوجدت الطبيعة ما سمته بالوجه الآخر من الحياة ، والتمست إحساساً في قلب النزوية الثائرة بإمكان التغيير ، والتمست المكروب بأن الرجعة ميسورة ، وتبدت للإنسان [illegible] في صورة تأجيل مطرد .

[illegible] أمثل الآن أكذوبة الوجه الآخر من الحياة : هذا أحلامنا ، فهي أساس أن تعبير عن مخاوفنا وآمالنا ، وأنه نوع من الحلم الذي ترتبه إبان اليقظة . فنظرتنا إلى الوجه الآخر من الحياة مزيج من الشائعات والموائد والأذواق . ولذلك يصح أن يتخذها علماء النفس أساساً لبحثهم في الأمراض المختلفة ، وخصوصاً إذا اهتموا بالتحليل الخالص . فهو شيء لا وجود له أصلاً ، وإذا أنت ضيعت على نفسك فرصة فإنما تضيعها إلى الأبد ، وإنك إذ تعتمد في اختيارك الأمور على سواك وتقوم بتقليد حياة الآخرين من أجل تزيين حياتك ، تفسد قيمة حياتك وتجعلها شيئاً خاملاً بعيداً عن الابتكار والخلق . فلتكن حياتك إذاً قصة من وحي خيالك وعقلك في الظروف التي تقوم من حوالك والإمكانيات التي تتوفر لديك . اخلقها بنفسك وتحمل مسئوليتها وحدك ، وكن أنت صاحبها من الألف إلى الياء فيها . وعندئذ ستدرك معنى الحياة ..

عبد الفتاح الديدي

صور خاطفة لشخصيات لامعة

لديل كارنيجي

ترجمة الأستاذ حسين أحمد أمين

— ٢ —

لينـــين

أريد الآن أن أحدثك عن رجل مات منذ خمسة وعشرين عاماً فقط، ومع ذلك فإنك تجد مائة مليون نفس تنظر إليه الآن نظرتها إلى القديسين والأبطال، وتجد مدينة كبيرة يبلغ سكانها سبعمائة ألف نسمة قد سميت باسمه تمجيداً له وتخليداً لذكراه.

هذا الرجل يدعى لينين، الذي أجرى في روسيا أعظم تجربة للنظام الاقتصادي وربما كان له بعض الأثر عليك أو على سكان العالم أجمع.

كان لينين متين الجسم أصلع الرأس نحيف الوجه، وكانت ساقاه قصيرتين حتى إن قدميه لا تكادان تلمسان الأرض إذا جلس على مقعد.

ولم يعن لينين قط بمظهره الخارجي؛ فسرواله بادي الطول، وأنفه أفطس قليلاً، وإحدى عينيه بها حول، وربما لم يلبس في حياته قبعة من حرير أو معطفاً فاخراً.

وكانت حياته الزوجية مثالاً للحياة السعيدة الهادئة، وكانت زوجته تحبه كل الحب، حتى إنها رفضت أن تتخلى عنه عندما نفي من البلاد، فصممت على الذهاب معه للعناية به والسهر على راحته.

ولما كثرت أوقات فراغه وهو في منفاه بسيبيريا عكف على لعبة الشطرنج حتى أصبح من أمهر لاعبيها. وكان في إمكانه أن يلعب — في وقت واحد — أدواراً عدة. وبلغ من ولعه بهذه اللعبة أنه كان يلعبها مع أصدقائه بواسطة البريد.

كان وهو في صباه جاداً عبوس الوجه حزين النفس، لا يشترك في لعبة رياضية ولا ينضم إلى زملائه في لهوهم. فلما تقدم به العمر لم يشعر بميل إلى الموسيقى أو الشعر أو الدين، ولكنه درس القانون وتعلم ثلاث لغات: الفرنسية والألمانية والإنجليزية إلى جانب الروسية.

وقد أعدمت الحكومة الروسية أخاه لأنه دبر مؤامرة لاغتيال القيصر اسكندر الثالث، ونفت لينين نفسه بعد ذلك لأفكاره الثورية إلى مدينة صغيرة في سيبيريا الشديدة البرد. وهناك شاهد لينين بعينيه تعاسة الفلاحين الروس وفقرهم المدقع، فلم يكن بإمكانهم أن يأكلوا اللحم إلا في الأعياد الدينية الكبرى، أي أنهم لا يتذوقونه سوى عشرين مرة كل عام.

وفي أثناء المجاعة الكبرى عام ١٨٩١ عندما هلك الملايين من الفلاحين بسبب الجوع وانتشار التيفوس والكوليرا، رأى لينين واعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا سبيل إلى علاج هذه الحالة إلا بخطوات ثورية، ومن هذا الوقت أصبح ثورياً يتأجج حماساً.

والخمسة والعشرون عاماً التالية كانت كلها اضطهاداً له وتجنياً عليه.. فكان لا يحل في بلدة إلا طردوه منها! فعاش تارة في ألمانيا وتارة في النمسا، وانتقل من فرنسا إلى بولندا، ومن سويسرا إلى انجلترا. وكان في لندن يمكث ساعات طوالاً أمام مقبرة كارل ماركس أبي الاشتراكية الحديثة.

ولكي يتجنب القبض عليه كان يتنكر أحياناً في زي فلاح أو حمال أو عامل في مصنع. وكان تارة يضع شارباً مستعاراً على وجهه، وتارة يلبس زي النساء. وكان يحرص دائماً على أن يكون لحقيبته حاجز حتى يضع به أوراقاً سرية ووثائق خطيرة. وكان أحياناً يضع هذه الأوراق والوثائق في حديقته ويزرع فوقها أشجاراً للفلفل والكرنب.

وقد كتب أحد كتبه الثورية بالسجن. ولكي لا يكتشف

أمرها أحد كتبها باللبن بدلا من الحبر . فلا تقرأ سطورها إلا بعد غمسها في الماء الساخن . وقد أوصى تلاميذه بالكتابة إليه بنفس الطريقة . فإذا ما وصلته خطابات منهم من هذا النوع طلب من سجانه قدحاً من الشاي ... وعندما يدير السجان ظهره يغمس الخطاب في قدحه ليتمكن من قراءته .

وأصبح لينين عام ١٩١٧ ديكتاتوراً على روسيا وألغى الملكية الخاصة ؛ وأصبحت الدولة مالكة لجميع الأراضي والشركات . وهرب ملاك المقاطعات الكبرى بقدوم الفزع ، فوزعت أملاكهم على الفلاحين الذين انتهزوا فرصة هرب السادة فمزقوا طنافسهم ومظلاتهم الفاخرة وصنعوا منها أحذية لهم واستولوا على أوانيهم الذهبية وأثاثهم الثمين .

وفي الوقت الذي جاع فيه شعبه رفض أن يضيف إلى شايه قطعة من السكر لأن شعبه محروم من السكر . ورغم أنه كان الديكتاتور الأعلى في روسيا فإنه حرم نفسه من أبسط أنواع الكماليات . وقد حكم روسيا دون أن يكون لديه هيئة من السكرتيرين . ولم [illegible] أحد . بل كان يكتب خطاباته بنفسه وكان يعمل من ثماني عشرة ساعة إلى عشرين ساعة في اليوم .

وبعد خمسة أعوام أصيب بالشلل وتصلب في الشرايين وفقد القدرة على النطق ، فكانوا يعلمونه من جديد كيف يتكلم كما يعلمون الطفل . وشلت يده اليمنى فعود الكتابة بيسراه ، وجاهد مدة عامين كاملين في سبيل التغلب على هذا المرض ، حتى وافاه أجله ، وكان يقول من حين لآخر : « مازالت أمامي أعمال كثيرة أريد أن أؤديها » .

وترى الآن صورته معلقة في كل منزل وفي كل مصنع وفي كل جمعية في جميع أنحاء روسيا . وقد اعتاد الخبازون هناك أن يزينوا كعكاتهم بصورته ، واعتاد البستانيون أن يبذروا حبوبهم بحيث تتخذ الأزهار شكل صورته ، واعتاد النساجون أن ينسجوا أنسجتهم بملامحه . والفلاحون يعبدونه كإله ، ويروي بعض الفلاحين أنهم رأوه يقوم من قبره ليساعدهم ويتقدم من مشاكلهم .

وجثته الآن موضوعة في نعش من الزجاج يحج إليها الجماعات من الحجاج . ففي كل يوم يتقدم ألف من عابديه [illegible] القلوب ليلتمسوا من ذلك الرجل [illegible] في تاريخ العالم — البركة والقوة .

حسين أحمد أمين

نشأة التاريخ الإسلامي والطبري

(بقية المنشور على صفحة ٨)

هذه الفترة محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة التي اعتمد عليها ابن هشام ، وقد توفي سنة خمسين أو إحدى أو اثنتين وخمسين ومائة ، وقد قيل عنه إنه كانت تعمل له الأشعار فيضعها في كتب المغازي ، وإنه أخطأ في كثير من النسب الذي أورده في كتابه ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه كما ذكر لنا ياقوت في معجمه ، وكان قصد أبا جعفر المنصور بالحيرة فكتب له المغازي .

والمؤرخ الذي نال شهرة بعيدة ومكانة سامية في ذلك القرن هو الواقدي ، واسمه محمد بن عمر ، وكان عالماً بالحديث والمغازي والفتوح ، وقد قربه المأمون وولاه القضاء بشرقي بغداد في عسكر المهدي ، وتوفي هناك سنة ٢٠٧ هجرية ، وكان المأمون يكرمه ويبالغ في إكرامه ، ولكن المحققين يستضعفون حديثه .

ومن مؤرخي ذلك العصر المعروفين الهيثم بن عدي الذي عاش من سنة ١٣٠ إلى ٢٠٩ هجرية ، وكان أهل الحديث لا يثقون به ، ويروون أن جاريته قالت عنه : « كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي ، فإذا أصبح جلس يكذب » ، وكان من معاصريه هشام بن محمد السائب الكلبي ، ولكن الهيثم كان يفوقه معرفة .

ومن مؤلفي هذا العصر المدائني علي بن محمد المولود سنة ١٣٥ ، والمتوفى سنة ٢٢٥ ، وقد مهد هؤلاء المؤرخون بما جمعوه من مادة السبيل لظهور المؤرخ المحدث الكبير ابن جرير الطبري .

علي أدهم

من خواطر رمضان

للأستاذ خليل مذكور

أرقت ليلة بعد تناول السحور، فحاولت أن أبدد هذا الأرق، أو — بالأحرى — أن أستفيد منه، فعمدت إلى الأعداد الأخيرة من مجلة الثقافة أستعرضها، فاسترعى تفكيري مقال نشر بالعدد ٥٩٧ الصادر في التاسع عشر من شهر شعبان الماضي للأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين بك تحت عنوان «خواطر»، وقد رقم سعادته المقال برقم «١» مما يتوقع منه تسلسل تلك الخواطر التي لا ساحل لها ولا قاع. ذكر فيه ما قد يوحيه منظر شخص إلى آخر من النفور والكره، أو يبعث في نفسه من العطف والحب دون أن تبرز للظاهر ما يبعث في النفس النفور أو العطف، بل وقد تدعو تلك الظاهر — حسب ما اصطلح عليه عند رجال الفن وعلماء الأخلاق — إلى عكس ما يحس به الإنسان نحو آخر، ومع ذلك يظل ما يشعر به نحوه بغضة أو ثقل روح هذا الآخر. واختتم سعادته مقاله الشائق بالتساؤل: ألا يمكن حضرات السادة علماء النفس المتخصصين فيها والمتحرين في دراستها ما يشعب بهذه الحيرة ويكشف هذا الغموض؟

وإني وإن لم أكن من المتحرين في علم النفس ولا أدعي أني استطيع كشف ذلك الغموض، لكني أثناء تأملاتي في «ساعات السحر» هذه (بعد استئذان الزميل القديم العلامة الدكتور أحمد زكي بك) رجعت بالذاكرة — أو هي التي رجعت بي — إلى خمسين عاماً أو تزيد إلى مجلس كان يضم المرحوم والدي وثلة من أجلة علماء الدين الأقدمين — رحمهم الله ورحم زمانهم — جمعهم يتباحثون في معنى الحديث الشريف:

«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

فخطر لي الآن أن أرجع إلى كتب الحديث لمعرفة سنده والظروف التي روي فيها، والمناسبة التي قيل من أجلها، فألفيت أنه حديث متفق عليه، رواه الشيخان في اللآلئ، وكذلك رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقال البيهقي إنه سأل الحاكم أبا عبد الله الحافظ عن معناه فقال: «المؤمن أو الكافر لا يسكن قلبه إلا إلى شكله» ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، وكذلك في صحيح البخاري عن سهيل ابن عقبة عن عائشة — رضي الله عنها — أنها سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء وتمزح، وكانت امرأة بالمدينة مثلها، فقدمت المكية المدينة فلقيت المدنية فتعارفتا ودخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما، وسألت عائشة المكية: هل كنت عرفت هذه؟ فقالت: لا، ولكنا التقينا فتعارفنا، فضحكت عائشة وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الأرواح جنود» الحديث، وروى هذا الحديث بهذا النص كثير من الرواة مثل سلمان وابن عباس وابن عمر وعمر وغيرهم من أهل النقل، لكن ابن مسعود رواه بلفظ آخر وهو: «الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام كما تتشام الخيل! فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. فلو أن رجلاً مؤمناً جاء إلى مجلس فيه مائة منافق وليس فيهم إلا مؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه، ولو أن منافقاً جاء إلى مجلس فيه مائة مؤمن وليس فيه إلا منافق لجاء حتى يجلس إليه» وأخرجه البيهقي بلا سند عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «لو أن رجلاً مؤمناً دخل مدينة فيها ألف منافق ومؤمن واحد لشم روحه روح ذلك المؤمن، ولو أن رجلا منافقاً دخل مدينة فيها ألف مؤمن ومنافق واحد لشم روحه روح ذلك المنافق».

وجاء في الحلية في ترجمة أويس: لما اجتمع هرم بن حيان العبدي، ولم يكن لقيه، وخاطبه أويس باسمه، قال له هرم: «من أين عرفت اسمي واسم أبي؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني»، فقال: «عرفت روحي روحك حيث كلمت نفسي نفسك، لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله، وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل».

وما أحسن ما قال الشهاب بن أسعد التنوخي في هذا المعنى:

إن القلوب لأجناد مجندة ... قول الرسول فمن ذا فيه يختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلف

وقال أحد الشعراء أيضاً :

بيني وبينك في المحبة نسبة   مستورة عن سر هذا العالم
نحن اللذان تعارفت أرواحنا   من قبل خلق الله طينة آدم

فهم من كل هذا أن الأرواح تتآلف وتتنافر أو تتناكر. ولما كانت الأرواح هي المحركة للأجساد ، وقد خلقت الأرواح قبل الأجساد ، كما رجحته غالبية الشراح ، بل وادعى فيه ابن حزم الإجماع — فما تعارف منها في عالم الأزل ، أي قبل خلق الأجساد — وقع بينها الائتلاف والانسجام بعد خلق الأجساد ، وما تناكر منها في عالم الأزل حلت بينهما البغضاء والشقاق في عالم الحس الذي نعيش فيه . أو لم يحدث لكل منا أن يدخل عليه شخص لأول مرة فترتفع بينه وبينه الكلفة ، ويشعر كل منهما نحو الآخر بعطف ، كما لو كان يعرف أحدهما الآخر منذ أمد بعيد ، كما يحدث عكس ذلك أن يباشر المرء شخصاً السنين الطويلة ويبقيا ، وكأن بينهما حجاباً كثيفاً ، أو ليس هذا من فعل تعكس روح كل منهما كما وقع لها في عالم الأزل .

هذا وما دمنا بصدد الحديث عن تآلف الأرواح وتنافرها — والحديث كما يقولون ذو شجون — فإن ... خاطر آخر يدعونا إلى التساؤل عما إذا كانت الأرواح المتآلفة لما بينها من التشابه في الروح تتقمص أجساداً متشابهة كذلك في الملامح وقسمات الوجه وأعضاء الجسم حتى وفي خطوط الكف ، وعما إذا كنا نستخلص من ذلك أن الأشخاص المتشابهين في الملامح وأعضاء الجسم يكونون متشابهين في الصفات والطباع ، ولذلك يحدث بينهم الانسجام والاتفاق ، وأن الذين تختلف ملامحهم لا يحدث بينهم انسجام ولا وفاق . يؤكد ذلك علماء الغرب في مخطوطاتهم وكتبهم في علم الفراسة (Physionomie) .

— ولا أدرى إذا كان لفظ « الفراسة » اشتق من العرب لأنهم كانوا أول من درسوا هذا العلم — حتى لقد قالوا إذا أراد المرء أن يعرف حقيقة طباعه فلينظر في المرآة ، فإذا وجد أن فيه بعض الملامح التي يغلب وجودها عند أحد « إخواننا » الحيوانات (nos frères inférieurs) ، يحكم في الحال بأن عنده من الصفات والطباع التي يمتاز بها ذلك « الأخ » من شجاعة وإقدام أو مكر ودهاء ، إلى غير ذلك من الصفات التي خص بها الله مخلوقاته المختلفة . وإني أخشى أنه ليس هناك من بين قراء الثقافة الكرام من يتعارف عليهم قول شكسبير في مسرحيته "As you like it" (كما تريدها) :

"If you hav'nt never seen an..."
"Go home and break your looking glass."

ما تعريبه مع بعض التصرف :

إذا لم تكن قط رأيت ابن الأتان ،
فاعمد إلى مرآتك وحطمها بلا توان .

ولم يكن علماء الغرب وحدهم هم الذين قالوا بأن ملامح الشخص تنم عن أخلاقه وطباعه ، فهناك بعض علماء القانون الجنائي من الطليان وعلى رأسهم لمبروزو Lombroso وفيري Ferri وجاروفالو Garofalo الذين ميزوا من بين المجرمين من يولد مجرماً بفطرته وطبيعته ، ووضعوا علامات جسمية جمالية مميزة له تدل على الإجرام ؛ منها نتوء الجبهة وضخامة عظم الفك الأسفل وتدلى الأذنين كآذان الكلاب ، وعدم تناسب الجمجمة مع الوجه ، والقدرة على استعمال اليدين بقوة واحدة في السواء .

وقد ... هذا الخاطر إلى خاطر آخر (والخواطر هي الأفكار ... وكلمات تتداعى وتتجاوب) وهو أنه ... شخص أو نتكلم عن شخص معين ... فنقول العامة : « نتذكر القط يجيء يتنطط » ، ويقول الفصحى : « ما لاح بر الخاطر حتى رآه الناظر » . ويقول الفرنسيون :

"Quand on parle du loup on en voit la queue"

ومعناه حرفياً : (عندما يتكلم المرء عن الذئب يرى ذنبه) .

ويقول الإنجليز :

Talk of the devil and he is sure to appear

وترجمته الحرفية : (إذا تكلمت عن العفريت فمن المؤكد أنه يظهر لك) أو ما يقرب من هذا المعنى على لسان العامة : (اللي يخاف من العفريت يطلع له) .

إخالني قد أثقلت كثيراً على القارىء الكريم بهذا الخبط الأعشى والخلط بين الجد وشبه الهزل ، ولكن معذرة ، فهذا من تخريف الصيام وعمل ذلك الشهر الكريم الذي تكثر فيه « السلطات الأدبية » والأضحية والسلام ؟

خليل مدكور

في النقد الأدبي

«السـخرية» Satire

للأستاذ جمال الدين الرمادي

ماذا دهاك يا صاحبي ؟ أراك غريب الأطوار غريب الأساليب ، فأنت تستعمل لغواً في ظاهره الرحمة ومن باطنه العذاب . ولقد أحسست في عباراتك وكلماتك أصداء سخرية عنيدة وتهكم عنيف . وما أظن إلا أن السخرية من بدائع هذا العصر الحديث ومن نبات هذه الحضارة الحديثة . وإذا كانت الحضارة تتكون على حد تعبير ول ديورانت من عناصر أربعة هي : الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون ، فإني أظن أن هذه العناصر قد تعددت وتنوعت في هذا العصر الحديث . وما أظن إلا أن السخرية من نتيجة هذا التعدد وهذا التنوع !

قلت وقد ارتسمت على ثغري ابتسامة [illegible] : كلا يا صاحبي ! فالسخرية فن قديم من فنون الأدب ، وإن الناظر في الأدب العربي والآداب الأجنبية يلاحظ أن السخرية كانت منتشرة في هذه الآداب بشكل ملحوظ وصورة ملموسة .

وقد تستعمل هذه السخرية لغاية التلهي أو التسلي أو يكون الغرض منها التشفي . والأصل في السخرية على حد تعبير دائرة المعارف البريطانية النظر إلى العيوب الإنسانية والتهكم على المثالب الخلقية والنقائص الجمالية ؟ وكان أركيلوكس Archilochus الأستاذ الأول لهذا الفن عند الإغريق ؛ ففي خلال الآثار الأدبية التي وصلتنا عنه يمكن أن نستشف روح التهكم على المجتمع والسخط عليه والزهد فيه . وقد اشتهر غير أركيلوكس سيمونيدس Somonides ، واشتهر هيبوناكس Hipponax كذلك . ولكن السخرية استعملت في الريف بمعنى أوسع ، وما لبثت أن نمت وانتشرت في الدراما واكتست بصبغة أدبية رائعة في أسلوب شعري ممتاز . وظهرت السخرية في شعر ارستوفان ، وظهرت في إيطاليا عند كثير من الشعراء المقلدين لآثار الإغريق . أما عند الرومان فقد ظهرت السخرية في مسرحيات هوراس Horace وشيشرو Cicero وكنتليان Quintilian . وقد اصطبغ التهكم عند هوراس بصبغة فلسفية مهذبة معتدلة ، ولكن عندما اتسعت الدولة البريطانية ظهرت روح التهكم بشكل ملحوظ ملموس ، وألف كثير من القطع الساخرة ، وظهر كثير من الأساطير التي تدل على السخرية بطريق مباشر أو غير مباشر ، وتنم عن التهكم بشكل ملحوظ أو مستور ، مثل رينارد الثعلب Reynard the fox ؛ وقد اشتهر صمويل بتلر في الأدب الإنجليزي بروح التهكم [illegible] كذلك ، ولا سيما في [illegible] Absalom and Achitophel التي [illegible] من الملكية ضد شافتسبري ، ويمكن أن نعد رحلات جلفر لسويفت ، كما يمكن أن نعد بعض إنتاج إديسون من الأدب التهكمي اللاذع ؛ ولقد اشتهر فولتير في الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر بتهكمه الشديد وسخريته اللاذعة التي لا يجاريه فيها أحد . وذاع التهكم في الأدب الفرنسي الحديث منذ القرون الوسطى ، وتمثل في القرن السادس عشر في شعر دي بلاي Du Bellay ورابليه Rabelais ، وقد اشترك الاثنان في تأليف أربعة مجلدات ؛ كما ظهرت السخرية كذلك عند رينيه وماكت وبوالو Boileau ، وظهرت في القرن السابع عشر في الفن الشعري . أما في القرن الثامن عشر فظهرت عند جلبرت وأندريه شنييه ، وجرت السخرية في القرن التاسع عشر في مجراها الطبيعي في الصحف والمجلات والأشعار ، وكان من أعلامها أوجست باربيه وفيكتور هيجو وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر . وظهر التهكم كذلك في إيطاليا عند

أريستو في القرن السادس عشر بين عامي ١٥١٢ – ١٥٣١ . وصور السخرية عند أريستو حياة الفرسان وأفكارهم وروح العصر ، وظهرت في إيطاليا عند البيري وأرتين كذلك ، وامتدت إلى ألمانيا فبدت في أدب زيلاند Wieland وليسنج Lessing ، ولكن لم تطغ على شعر بيرون ووردزورث روح العصر والوصف لسكنه من أروع شعراء السخرية في الأدب الإنجليزي .

ولكن ثاكري يعد من أروع كتاب القصة التهكمية في الأدب الإنجليزي ، وكذلك الحال مع جورج ميريديث الذي كان قوي النظر في الحياة والأحياء ، وقد مثل ذلك من جورج اليوت التي كانت متأثرة بعرض نبيل وعطف سام في نقدها ، وقد مثل هذا من برنارد شو الذي كان كاتباً ساخراً بالحياة الإنسانية ومثاليها وأنظمتها ! ولكن السخرية أخذت عند برنارد شو طابعاً عبرياً عاتياً ، كأنه صبغها بصبغة الكاريكاتير ، فهو ينقد المجتمع الإنجليزي ، وهو يسخر من مقومات الحياة الحديثة ، وهو يصب جام غضبه على كثير من التقاليد البالية ، وهو ينقد نظام السجون ويكتب في ذلك فصولاً طوالاً ، وهو يتهكم على [illegible] ويرى أن شكسبير سرق فلسفته من مونتين [illegible] وموضوعاته من باندللو ، ويرى أن [illegible] يعرف كل شيء ، وأن ينتقد [illegible] من المواضعات الاجتماعية والدينية .

والواقع أن السخرية على اختلاف ألوانها وتباين صورها لا تعدو أن تكون أحد أنواع أربعة تكشفت عنها دائرة المعارف الفرنسية لاروس ، وهي السخرية الدينية ، والسخرية الأخلاقية ، والسخرية السياسية ، والسخرية الشخصية .

ومن الطبيعي أن تنال بعض ألوان السخرية الاستحسان من كثير من الناس ، وإني لأستحضر في هذا المقام قول لا برويير La Bruyere :

« قد لا يستطيع أحد السخرية أن تجرح الآخرين ... ولكن أفضل الحكايات لا تستحق هذا ما أريد أن أقول ، ووجهي قوارص السخرية لي إن كنت الشائن » .

هذا حديث السخرية في الأدب الأوربي ، ولكننا إذا ما التفتنا في أدبنا العربي وجدنا بعض ألوان السخرية في الأدب الجاهلي عند شعراء الصعاليك وغير شعراء الصعاليك ، ولكنها كانت سخرية بسيطة ساذجة ليس فيها تعقيد الحضارة ولا تشعب الذهنية ، وكانت مستمدة من البيئة الجاهلية والطبيعة الصحراوية . وقد أطلق مؤرخو الأدب على هذه السخرية هجاء ، ولكن الهجاء ليس في الواقع سخرية ، إنما الهجاء لون من ألوان السخرية ، والهجاء ضد المدح في اللغة . أما السخرية فقال عنها الأخفش : سخر منه وهزئ منه وبه ، وهزأ منه وبه كل يقال ، والاسم السخرية بوزن الذرية ، وقال تعالى : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ، والأصل في التسخير التذليل ! ولقد ظهرت السخرية في بعض الأشعار الجاهلية كما قلت ، ولكنها ظهرت في صدر الإسلام وعصر بني أمية بشكل أوضح وأشيع ، ولا سيما عند جرير والفرزدق اللذين كان يحاول كل منهما أن يقذع في الآخر قدحاً عنيفاً وعيباً ، ويتفنن في الصور التي تحط من قدره وتسخر من شأنه ، بل قد يندفع في السخرية اندفاعاً ويمعن في التهكم إمعاناً فتدفعه السخرية إلى ذكر العورات والحرمات دون تهيب ودون توقر ، وكذلك [illegible] الأخطل في بعض أشعاره . ولكن [illegible] العصر العباسي والتقت الثقافات المختلفة والحضارات المتباينة من تركية وفارسية وهندية ونصرانية ويونانية ورومانية ، وجدنا الشعراء يتجه كثير منهم إلى التعصب والشعوبية ، ودفعت الشعوبية كثيراً من الشعراء إلى السخرية والتهكم والهجاء . فكان الشاعر يفخر بأنه عربي إلى عربي سدى ولحمة ، ويقدح في الشاعر الآخر ويزعم أنه أعجمي إلى أعجمي سدى ولحمة كذلك ، ولأجل ذلك يتفنن الشاعر في عرض السخرية تفنناً بديعاً رغم أنها سخرية إن صح هذا التعبير ! ولكن ينبغي ألا ننسى أن الجمال ليس هو التعبير عن الشيء الجميل فحسب ، وليس الجميل هو ما تعرف [illegible] الصحيح أو القبيح فحسب ، وليس الجمال معناه السماء الزرقاء ، ولا القمر الناطق ، ولا الربيع المونق ، ولا الشجر المورق ، ولا الطير الصادح فحسب ، وليس الجمال معناه الوجه الصبوح ، والعيون السوداء أو الزرقاء ، والشفاه اللمياء ، والشعور الشقراء أو الدلاء فحسب ، بل هنالك جمال آخر يتمثل في العاطفة

الموسيقا والفيروزية الوفيرة، ويشتد في أنات الأم وصيحات الثاكل.

فهنالك سخرية في الشعر العربي مضحكة تصور بشعة المنظر، ولكنها جميلة إلى أبعد حدود الجمال، وهنالك سخرية في الشعر الأوربي والفن الأوربي فيها بؤس وفيها يأس، ولكن فيها جمال ما بعده جمال. فبعض اللوحات الفنية عند رامبرانت Rambrandt تصور الرجال البشعين القذرين، وبعض التماثيل تمثل أقزاماً تمثل الرقيق الهزيلين العابثين المتسولين، ولكنها رغم هذا كله لا تقل في روعتها عن أي صورة جميلة أو تمثال شعري جميل.

وإذا كانت تلك كذلك في الفن فما تلك الأدب؟ فهنالك صور أدبية كثيرة كتصوير الملك لير، ذلك الرجل الطاعن في السن الطائل في تعلله القمر في حياته، لا يقل في قيمته الفنية عن تصوير بطل عظيم آخر كهملت أو أوتلو أو قيصر. وهنالك صور أخرى [illegible] تمثل المتسول الذي يسير وحيداً، وصور [illegible] قاطع الأعشاب البالي البائس وهو يموت مرتعشاً بين الزروع الخضراء، ولا تقل في قيمتها [illegible] التي تمثل جمال الطبيعة أو جمال الوجوه [illegible]

ولكن لم نذهب بعيداً ولدينا الأدب العربي وفيه صور متعددة من السخرية في الدرجة الأولى من الجمال، وقد ظهرت هذه السخرية في العصر العباسي كما قلت آنفاً بشكل واضح، ولا سيما عند بشار بن برد الذي كان شاعراً ساخراً إلى حد بعيد. وذكر صاحب الأغاني أن بشاراً قال الشعر ولم يبلغ عشر سنين، وما بلغ الحلم حتى خشي من معرة لسانه. وقال صاحب الأغاني كان بشار يقول: (هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني ولو أجابني لكنت أشعر الناس) وقال الأصمعي: (بشار خاتمة الشعراء، والله لو أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم) وقال الأصمعي كذلك: (إنه يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه)، وكان يشبه بشاراً بالأعشى، ويشبه مروان بزهير. قال أبو حاتم: (سألت أبا زيد مرة أخرى عنهما فقال: مروان أجد، وبشار أظرف) فحدثت الأصمعي بذلك فقال: (بشار يصلح للجد والهزل ومروان لا يصلح إلا لأحدهما).

والواقع أن بشاراً طرق باب الهزل كما طرق باب الجد، ولجأ إلى السخرية في جده وهزله وتفنن في عرض سخريته فقال يتسخر من عباس بن محمد:

إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

والواقع أن السخرية في هذا البيت الأخير بشعة الصورة إلى أبعد غايات البشاعة، قبيحة إلى أبعد حدود القبح! فقد صور بشار علل البخيل التي يعتذر بها عن ماله عذاراً الأسباب مبديا الظاهر عيون زرقاء على وجوه سوداء، ويمكن لمستدق أن تصور العيون الزرقاء عندما تطل من أوجه سود فيبدو للناظر مرعباً رهيباً قد ترتعب منه حملقة ارتياعاً وتقشعر منه أطرافك قشعريرة.

ولكن بشاراً لم يكن الشاعر الساخر الوحيد في العصر العباسي، وإنما جاء بعده شعراء ساخرون آخرون كأبي نواس، ويعتبر أبو نواس شاعراً من أروع وأبدع الشعراء في السخرية، ويذكر لنا الأغاني مثلاً من أمثلة الهجاء [illegible] حمقة ببله وذكاء حماره.

[illegible] ... يأتي الحسين والسمكا
[illegible] ... رأى قدمة وبكى
[illegible] ... يأتي سلأم ضحكا!

ولا ريب من شك في أن هذه الصورة الساخرة تدعو إلى الضحك حقاً وإلى الإعجاب حقاً. ولكن الفن الهجائي الذي وصل إلى ابن الرومي بعد بشار وأبي نواس كان سباباً وشتماً، وذكراً للعورات والعيوب في أكثر مظاهره وظواهره! فاستغل ابن الرومي السخرية استغلالاً حسناً، ونأى عن هذه الأمور جميعاً.

ويظهر أن ابن الرومي كان يستخدم هذا السلاح لأنه شعر بضعف في حسه! فكأنه إنما لكيه إنسان سلط عليه لساناً قاسياً مراً، وجربه ليذوق غليله ويتقي علله، فسخرية ابن الرومي سخرية أساسها الضعف والحرمان لعدم اللياقة والبنية الوسيمة، إلى جانب أنه كان شخصاً متطيراً إلى أبعد حد! فقد زعموا أنه رجع إلى داره لأنه وجد فتيين متماشيين على هيئة لا. وكان هذا يغني الجالس، ولا يحسن

السياسة ولا مداراة الناس ولا مصاحبة الأصدقاء ، ولا خصومة الأعداء ، وكان ابن الرومي رقيق الإحساس إلى حد بعيد ، لكثرة الفواجع التي ألمت بساحته والنوازل التي هدت كيانه .

وكان ابن الرومي رائع التصوير صادق التعبير ، معانيه تميل إلى التجسيم والتجسيد مبتكرة في أغلب الأحايين ، وقد قالوا إن عبقريته نوع من العبقريات اليونانية التي تتلخص في الحرص على الحياة والإفراط في حبها والتعلق بلذاتها ، ولكن السخرية في شعره ، كانت تتخذ خطوطاً كاريكاتورية قوية .

استمع إليه يقول في ذم بخيل :

يقتّر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

وقد انتشرت السخرية بعد ابن الرومي عند المتنبي وأبي العلاء وغيرهما ، ولكن سخرية أبي العلاء ، كانت سخرية من الحياة ومن قيمها ومن معاييرها . فهو يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به

أبرّ من درهم تعطيه محتاجاً

كأنما انصبت على الحياة والموت :

صاح ! هذه قبورنا تملأ الرحب

فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الـ

أرض إلا من هذه الأجساد

فهذه سخرية من العباد وسخرية من الحياة ليس بعدها سخرية ، تنم عن مذهب أبي العلاء واتجاهه الفلسفي في الحياة ذلك الاتجاه الذي اشتهر به في التاريخ .

وقد حاول كثير من الشعراء في العصر الحديث أن يلجأوا إلى السخرية فتفاوتت حظوظهم واختلفت أنصبتهم في القوة والضعف والجمال والقبح ، ونحن إذا ما بحثنا في النثر العربي عن السخرية وجدنا الكاتب الأول في هذا اللون الأدبي هو عمرو بن بحر الجاحظ الذي قال عنه المبرد : « ما رأيت أفصح من أبي هذيل والجاحظ » وقد قيل لأبي هفان : « لم لا تهجو الجاحظ وقد هجاك ؟ » فقال : « أمثلي يخدع في عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن بيت في سنه » وكان الجاحظ يلجأ إلى الألوان العقلية والفلسفية والمنطقية في عرض كثير من صور سخريته ، وقد يلجأ إلى المغالطة في القياس أو السفسطة في المنطق ليحبك صور تهكمه ولوحات سخريته ، وقد يعمد إلى نظرية الأوساط كما هو الحال في رسالة التربيع والتدوير التي أرسلها إلى أحمد بن عبد الوهاب ، فيتفنن في عرضها تفنناً ويتنوع في أسلوبها تنوعاً .

(كان مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخمص البطن معتدل القوام تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة) .

وقال الجاحظ أيضاً :

(أخبرني من تفاوت ومن أعرس ومن كان وكان هرمس وإبرمس والروش وإرخارش وخوزرث بام وكيف صارت خوزرث عند أهل العوالم وأيها أكثر يأجوج أم مأجوج وأي الطير أيها أطول أعماراً وأيها أفضل شكر أو شكير وأيها أخبث هاروت أم ماروت وأي حوت ابتلع يونس وأي حية ابتلعت الهابط) .

ففي هذه الرسالة نستمع إلى أسئلة الجاحظ الساخرة التي يتفنن في عرضها تفنناً عجيباً طريفاً حقاً ، ونلمس روح الجاحظ الساخرة المتهكمة التي تتبدى في أكثر كتبه ورسائله .

وقد لجأ الحريري إلى السخرية كذلك في بعض مقاماته المشهورة على لسان أبي زيد السروجي الذي كان أديباً أريباً واسع الحيلة يجتذب إليه الناس بجواهر لفظه وسواحر كلمه وروائع صوره وشذراته وانثيالاته . ولكن ينبغي أن نعترف بأن السخرية في النثر العربي بوجه خاص لم تحتل مكاناً كبيراً ، إنما تناثرت هنا وهناك في بعض الآثار الأدبية لبعض الكتاب القدماء ، ووجدت بعض مقالات ساخرة في العصر الحديث مأخوذة من الأدب الأجنبي كما وجدت المقالة الهزلية التي قد تعرض بعض صور السخرية بين ثناياها في ثوب أدبي قشيب .

جمال الدين الرمادي

لسنج الناقد الألماني

للأستاذ عز الدين إسماعيل

١ — كثيراً ما لوحظ أن الحركات الأدبية في ألمانيا تنهض في العموم من بدايات أو مقدمات نظرية أكثر منها عملية؛ بمعنى أن المشاكل الأدبية توجد وتثار وتناقش قبل أن يكون لها رصيد من الأدب الألماني ذاته. وهكذا كان الحال عند بداية القرن الثامن عشر. وفي بداية هذا القرن كان هناك إحساس عام بفقر الأدب الألماني وفقدانه صفة الأصالة فقداناً تاماً. وحتى تلك المحاولة الجادة لإنتاج ثروة أدبية ألمانية، تلك المحاولة التي ظهرت بظهور مؤلفات جتشد Gottsched (١٧٠٠ — ١٧٦٦) فقد كانت فكرتها واضحة في تأسيس الأدب الألماني الحديث على أساس تقليد الأدب الفرنسي الكلاسيكي. على أن الحاجة لم تكن فيما يبدو تدعو إلى هذا التقليد من الأدب الفرنسي بخاصة، لأن حالة فرنسا وظروفها في القرن الثامن عشر لم تكن شبيهاً من حالة ألمانيا وظروفها — فضلاً عن اختلاف الشعبين الفرنسي والألماني في الطبائع والأمزجة اختلافاً بيناً — [illegible] إخفاق تلك المحاولة. وزيادة على هذا لم يكن في جتشد نفسه الكفاية لرفع مستوى الأدب الألماني. ولم يكن فهمه للموضوعات الشعرية في كتابه «فن الشعر» فهماً صحيحاً.

ولم يكن حظ هذه المحاولة بأسعد من حظ النزعة الجديدة التي ظهرت عند بدمر وبريتنجر، تلك النزعة التي كانت ترمي إلى توجيه الأدب إلى التراث الديني واتخاذه مادة للموضوعات الأدبية. وكان نموذجهما هذه المرة الشاعر الإنجليزي ملتن.

ولا يكاد يهل الشطر الثاني من القرن الثامن عشر حتى نجد نشاطاً قوياً له قيمته وأهميته قد ظهر بظهور بعض الكتاب الألمانيين، وأيضاً فقد ظهر شعراء مشهورون أمثال بوب وتمسون وغيرهما، وكانت السوق في الوقت نفسه قد غمرت بالكثير من المقتبسات والترجمات، سواء عن الفرنسية أو الإنجليزية. وهذه هي الحال التي كان عليها الأدب عندما وصل لسنج وهو في سن الثامنة عشرة إلى برلين ليصير عما قليل أهم ناقد.

٢ — بدأ لسنج يشق طريقه كما يصنع كثير من الشبان الآخرين، فأخذ يكتب في إحدى المجلات الأسبوعية الخاصة بالنقد، وقد كتب قصصاً كما كتب عدداً لألوان مختلفة من الأدب، بادئاً من القصة الطويلة إلى الحكايات الخرافية، متعرضاً لكل ألوان الشعر والمؤلفات الفنية والفلسفية والدينية. وقد استمر لسنج أربع سنوات يكتب هذا النقد، مما أكسبه مراناً على الكتابة، وطواعية في الأسلوب، ودربة على النقد وتكوين الآراء بسرعة. وهذه الآراء هي التي كونت فيما بعد أحسن مؤلفاته.

لم يكن لسنج يجنح مطلقاً إلى المغالاة، بل كان معتدلاً [illegible]. ولذلك نجده في المناقشات العنيفة التي كانت بسبب القافية في الشعر قد وقف بين هؤلاء الذين قالوا بأهميتها وضرورتها وأولئك الذين عارضوا وهدفوا إلى إبطالها. ولم تكن القافية في نظر لسنج أمراً لا بد منه [illegible] عيباً يعاب، وإنما يمكن أن يستعملها الشاعر أو لا يستعملها حسب ما يراه أليق. وقد دفعته خبرته المسرحية في ليبزج إلى أن يلتفت إلى فائدة عملية للقافية في الشعر، فاعتبرها عاملاً له قيمته الكبيرة باعتبار أنها تعين الممثل على التذكر.

ومعظم هذه المقالات يلقي ضوءاً على عقلية لسنج، ويحدد موقفه من النقد في هذا العهد. حفل القرن السابع عشر في مجال الدراسات الفنية بدراسة قواعد الفن. وقد استقرت هذه القواعد بالتدريج، وأعطاها بوالو ديبرو في كتابه «فن الشعر» (١٦٧٤) نظاماً معيناً. وكان جتشد أول من عرضها في ألمانيا في الشطر الأول من القرن الثامن عشر؛ وبالرغم من الهجمات التي هوجمها جتشد فإن هذه القواعد قد استمرت، واستمرت لها صفة الاحترام نظراً لاعتبارها مؤسسة على تجارب الأقدمين. كان من الطبيعي أن تلفت هذه القواعد نظر لسنج، ولكنه نظر إليها نظرة أخرجتها من نطاق القداسة المعهودة لها إلى نطاق الأشياء

الطبيعة التي تخضع لقوانين التطور والظروف المحيطة ، فتولد وتنمو وتتشكل بحسب نوع الإنتاج . وإذاً فهي قواعد لا نفرضها فرضاً ولا نفرضها في كل حالة وعلى كل لون أدبي جديد ؟ وإنما نحكمها فقط في المحيط الذي يسمح بتحكيمها ، كما أننا نضيف إليها ونختلف منها عندما تستدعي الحاجة ؛ ولذلك يكون أمام العبقري دائماً مجال فسيح للظهور ، فلا يتقيد بهذه القواعد الموضوعة أو التي وضعها من قبل ، بل من حقه أن يخلق لنفسه خلقاً ، وأن يأتي فيه بجديد منها . « والصحيح إذاً أننا نعتبر من بين العباقرة ما يعود إليه السبق في وضع قواعد الفن ، وليس من حقنا مطلقاً أن نفرض هذه القواعد على إنتاج كل فنان ، فضلاً عن إنتاج العباقرة من الفنانين . وعبارة لسنج : « لقد نشأت القواعد في الفنون الجميلة نتيجة لملاحظة الإنتاج في هذه الفنون ، وقد ازدادت هذه الملاحظة من وقت لآخر ، وهي ما تزال تزداد كلما هو الحال من العبقري الذي لا يتبع مطلقاً خطوات سابقيه ، وإنما يشق له طريقاً جديدة أو يسير في طريق معروفة من قبل ، ولكنه يتجاوز حدودها القديمة »(1) . وخلال هذه العبارة [illegible] في العبقري .

ومن تلك الآراء التي شرحها أيضاً [illegible] المقالات رأي روسو في أن تطور الفنون والعلوم سبب في انهيار الأخلاق .

ولا يلبث لسنج من الرابعة والعشرين حتى يقدم للجمهور طبعة تضم مجموعة من هذه المقالات ، كما نقلت رسالته النقدية صيتاً كبيراً . وقد كانت هذه الرسائل دفاعاً عن الشاعر الألماني « سيمون لم S. Lemm » الذي عاش في القرن السادس عشر واختفت شهرته تحت وقع الحملات التي شنها عليه مارتن لوثر وأنصاره .

وقد قلنا إن حركة الترجمة في الشطر الأول من القرن الثامن عشر كانت في أشدها ، وكان من بين هذه الترجمات كتابا هوراس « أناشيد » و « فن الشعر » ترجمها الأديب Lange سنة ١٧٥٢ . وكان لسنج معجباً بالشاعر الروماني ، فما إن ظهرت هذه الترجمة حتى أخذ واستشاط غضباً لأن الترجمة كانت ضعيفة ، ونشر مقالة بين فيها مواطن الخطأ . ومنذئذ بدأ المعركة الأدبية التي خاض لسنج غمارها ، وقد حاول لانجه أن يرد عليه ، ولكنه ترنح في اتهامه أنه كاذب مأجور في نقده مما أدى بلسنج لمزيد الإيذاء .

ومثل هذا الاهتمام بالتراجم والتدقيق فيها قد جر لسنج مرة أخرى وبعد مضي أربع سنوات إلى معركة أدبية أخرى بينه وبين ليبركون الذي اكتشف لسنج أنه لم يترجم لبوقريطس « منظوماته » عن أصلها اليوناني ولكن عن اللاتينية . ومن هذا الاهتمام البالغ يتبين لنا بوضوح أن لسنج كان شديد الإعجاب بالأدب القديم ، وكان لهذا أثره في هذا الاهتمام . وهو لم يكن مخطئاً في التوقف الأدبي فحسب ، بل كان يعده خطراً ؛ ومن هنا كانت قسوته على المؤلفات التي لم تتوفر فيها العناية ، أو المؤلفات السطحية أو التي تدل على جهل سواء أكانت أصيلة أم مترجمة .

٣ — وقد كانت تلك السنوات التي قضاها لسنج مشتغلاً بالصحافة في برلين سنوات إصدار أنضج ما خلف من الثروة [illegible] تبدو في رسائله الأدبية التي بدأها سنة ١٧٥٩ [illegible] النقد ، والرسائل الأولى تتناول [illegible] الرواية ، وبعضها يدور حول المسرح [illegible] وبعضها يتناول شاعراً أو أثراً ، ولكن [illegible] الثلاث أودعهما ملاحظاته على طبيعة الشعر . ففي الرسالة الثامنة عشرة نجده يقول : « إن ما يستحسنه أساتذة الفن هو القاعدة » ، فنلاحظ أن موقفه من قواعد الفن — الذي سبق أن بسطناه بوضوح — لم يتغير ، فقوانين الفن عنده تمتاز بأنها ليست قوانين يختلقها المثل اختلاقاً ، ولكنها تستخرج من أعمال العباقرة . وفي الرسالة الأولى بعد الخمسين نجده يقول بأن الشعر الخالق مسألة أقرب إلى الشعور منها إلى التفكير المنطقي ، وكان لهذا أهميته في ذلك العصر الذي كان يتوقع دائماً من كل صور الأدب نتائج أخلاقية وتوجيهات تعليمية .

على أن هذه الرسائل لا ينبغي أن نبالغ في أهميتها وإن دلت على تنوع المقالات التي طرقها . والواقع أن لسنج قد استطاع أن يملأ الفراغ الذي لم يستطع جتشد أو غيره من قبل أن يملأه ، فوفق الحاجة الشعب إلى التوجيه في مرحلة التطور السريع للأدب الألماني ، مما كان له أثره بلا شك في ترقية الذوق الألماني في مدى عامين .

---

(1) H.B. Garland : Lessing, The Founder of Modern German Lit., P. 44.

٤ — وكانت خدمة لسنج للأدب الألماني أعظم في مجال المسرحية، فقد أصدر بمعاونة صديقه ميليس مجلة تهدف إلى تثبيت البلاغة الذوقية بنصوص الروايات المسرحية وإيراد النماذج من المسرحيات اليونانية واللاتينية ومن غيرها من اللغات الأوربية المعاصرة، إلى المسرح الألماني، وذلك بطريق الترجمة، ولكن يبدو أن لسنج لم يكن يستطيع النهوض بهذا العبء.

وقد كان لسنج أكثر ميلا إلى الأدب الإنجليزي منه إلى الفرنسي، لإحساسه بالقرابة بين الذوق الألماني والذوق الإنجليزي. ومن هنا كان يدعو إلى الاهتمام بأعمال شكسبير ودرايدن وغيرهما من كتاب المسرحية، إلى الأخذ بتلك الاهتمام بالشعراء الفرنسيين. على أن هذه الصحيفة لم يصدر منها أكثر من أربعة أعداد. وقد قام لسنج في العدد الأول منها بالتعريف بحياة بلوتس ومؤلفاته، وألحق الملهاة الألمانية نموذجاً منه هو ملهاة «الأسير» التي قام هو بترجمتها.

وقد حاول لسنج أن يحمل منذ البداية على المذهب الكلاسيكي الفرنسي، ولكن الضيق يبدو في أنه في ذلك الوقت عندما يشير إلى أن هدف الملهاة هو [illegible] الترويح وحسب. وقد كان ذلك حوالي (١٧٥٠).

على أن اهتمام لسنج الجدي بالمسرحية قد بدأ حوالي سنة ١٧٥٤، فبدأ من هذا العهد يظهر بانتظام سلسلة بعنوان «المكتبة المسرحية». وقد كان معجباً بالملهاة الباكية كما هي عند جيليرت، على أساس أن الربط بين الهزل والإثارة العاطفية أكثر واقعية من تمثيل واحد منهما فقط؛ وكان رأيه في المأساة وسطاً بين الرأي الشائع في عصره وبين فكرة الصالحة التي جعلته يقدر «الملاك» الخارجة عن حدود القرن الثامن عشر. ويتضح ذلك من قوله: «والواقع أني لا أستحسن من الضرورة أن نفيد من قطعة من مأساة درساً خلقياً، وأن نتعلم من الصفحات المثقلة الحقائق المفيدة، ومع ذلك فمن الضروري على أي حال أن لا يجعل الشخص منها فرساً في الشعر».

وقيمة هذا التقرير في إطلاق سراح المأساة من ضرورة التوجيه الأخلاقي. وفكرة التوجيه الأخلاقي في المأساة قديمة قدم أفلاطون وقبل أفلاطون، ولكنها تظهر بشكل واضح في حملة أفلاطون على المسرحية في وجه العموم بما عرضت في عهده. في هذه الفلسفة تتلاقى مع أمثال أوريبيدس. وإذاً ففكرة التوجيه إلى المثل الأخلاقية مرتبطة تقريباً بتاريخ المسرح اليوناني. والكلاسيكية الفرنسية المعاصرة للسنج كانت آخذة بهذه القاعدة ومتزمتة في تطبيقها.

ولعل هذا بالذات — ونظراً لنداء لسنج الأدب الفرنسي عامة — هو الذي حدا بلسنج إلى الدعوة إلى الخروج على هذا التقليد الأخلاقي، ولكنه لم يكن ثائراً ولا متهوراً. فقد رأيناه ما يزال يتقيد بشرط، هو أن لا يجعل الشخص من المأساة درساً في الشعر. وكل همه من المأساة أن تثير موضوع الشفقة والتعاطف الإنساني.

٥ — لم يكن رفض لسنج للأصول الفرنسية في المسرح بسبب نزعة هدامة في نقده، ولكنه كان موجهاً بالذات في هذا النقد، وكان يهدف إلى البناء، ولكنه كان معجباً بالمسرحية الإنجليزية. ومن أهم الأسباب التي جعلته يحمل على معتقد أن [illegible] على التقليد و[illegible] تقيد خلقي، أو من التقليد الأعمى، فضلا عن أنه كان من الأخيار فيما يحق أو فيما يترجم.

[illegible] نظراً كان لابد من ملاحظته بين شكسبير و[illegible] الأساس: «الأول يميل إلى الرقة والعطف والتأمل ... النزع ويرغب في مشاهدة حركة على المسرح أكثر مما هو مسموح به في المأساة الفرنسية. وهذه الكلاسيكية الفرنسية دائما تدل على القصور الشنيع عند الأدباء الفرنسيين وبعدهم عن جوهر الفن. هناك هما كورني وشكسبير، تبع أولهما الأقدمين ونادراً ما صنع ذلك الآخر، فقرب منهم كورني في الخصائص الظاهرة بينما قرب الآخر من الجوهر». ومن هنا يظهر لنا أن لسنج لم يكن يهدف في نقده إلى الهدم وحسب، بل كان أيضاً يتطلع إلى البناء على أسس سليمة.

وقد كان نقده للمسرحية الفرنسية وللأمة الفرنسية على العموم يرجع إلى ضيقه الشديد بغطرستهم واعتقادهم لأنفسهم أكثر مما يستحقون (قدم فولتير مثلا لسميراميس بقوله إنه كان من الممكن أن يحتج اليونان كثيراً في باب المأساة من الفرنسية.) ثم لإهمالهم التقليد. وهكذا النفوذ الذي اكتسبوه بمسرحهم في ألمانيا وأثره السيء على المسرحية الألمانية.

عز الدين إسماعيل

إبراهيم عبد القادر المـــازني

— ١ —

الأستاذ عبد السميع المصري

المازني ... تلك البسمة الساخرة التي ارتسمت على فم الأدب العربي زهاء أربعين عاماً ، وذلك الصوت المدوي الذي تجاوبت أصداؤه في أنحاء العالم العربي ثائرة مستثيرة حقبة من الزمان ، ما كان ينقضي فيها يوم دون أن نطالع للمازني مقالاً أو يخرج علينا بكتاب ، وما نكاد نمسك مجلة إلا ونجد فيها للمازني حديثاً أو مقالاً .

وكان المازني من الرعيل الأول الذين تقدموا الصفوف وحملوا مشاعل التجديد في مجتمعنا الشرقي وأدبنا العربي ، محتملين كل تضحية ، معرضين لكل نقد وتجريح ومنازلين لكل أذى ومكروه في سبيل تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم.

وقد أعانته طبيعته الثائرة وما اكتسبه من [illegible] في مقابلة ظروف الحياة القاسية [illegible] واحتمال أعبائها ؛ وكأن بالقدر كان يعده لهذا النضال العظيم الذي قام به ، لأن المازني قد ولد في الحادي عشر من يناير سنة ١٨٨٩ في حي الدرب الأحمر من أحياء القاهرة القديمة ، وكانت أسرته من الأسر المتدينة الحريصة على آداب الدين والتقاليد ؛ فللأخ الأكبر احترامه ومقامه في البيت لرتبته في السن ، وللوالد منزلته التي تقارب التقديس .

وكان والده من أصحاب الطريق أو مشايخ الطرق ، لأن المازني يحدثنا عن وجود مصلى وميضأة بالمنزل ، وغرف للأتباع والتلاميذ والمريدين على جانبي المدخل .

وقد ألحق المازني بالكتاب ، لكنه هرب منه لقسوة الشيخ والعريف ، فأدخل المدرسة الأولية ، ثم مدرسة القربية ، وكانت بحي الدرب الأحمر قريبة من منزله ، لكن أباه توفي بعد التحاقه بها بأشهر قليلة ، وكان لم يتجاوز السادسة من عمره .

وهنا بدأت ظروف الحياة تقسو على هذه الأسرة الفقيرة حتى اضطرت إلى الاستغناء عن كثير من ضروريات الحياة ، ويسهب المازني في الحديث عن هذه الفترة ويبرز أهمية الدور الذي لعبته أمه في حياته .

فهي التي وقفت في وجه أخيه وأقاربه عندما أرادوا توظيفه بعد أن نال الشهادة الابتدائية ، فأبت عليهم ذلك وأصرت على إتمام تعليمه ، ودفع نفقات هذا التعليم ولو ببيع أثاث البيت ، وهكذا أكمل المازني تعليمه الثانوي في المدرسة الخديوية ، ثم التحق بعدها بمدرسة المعلمين .

ولا شك في أن إصرارها على تعليم ولدها وقيامها بأداء هذه المهمة الشاقة عمل جليل في ذاته ، وكان له أثر بليغ في حياة ولدها ، لكنى لا أرى لهذه السيدة الطيبة أثراً في حياة ابنها أكثر من هذا ، ولو أن المازني يحاول إفهام الناس في بعض أحاديثه خلاف ذلك لما يشعر به من عظيم فضلها عليه بتضحيتها .

ولقد التحق المازني بعد أن تخرج في مدرسة المعلمين عام ١٩١٠ بمهنة التدريس فعمل في المدرسة السعيدية ، ثم ترك التعليم الأميري للتعليم الحر ، ثم آثر بعد ذلك الصحافة على عالم الوظائف بعد أن كان اسمه قد بدأ يلمع — وهو في وظيفته — في مجلة البيان وغيرها .

وأول عمله في حقل الصحافة كان مع المرحوم أمين بك الرافعي في جريدة الأخبار ، ثم اشتغل بعد ذلك في الكشاف والسياسة والسياسة الأسبوعية والبلاغ والأهرام[1] .

أما في أيامه الأخيرة ، فكانت مقالاته لا تكاد تخلو

---

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

منها عملاً، فهو يكتب في جميع صحف دار الهلال «المصور والاثنين والهلال» وأخبار اليوم وآخر ساعة ومسامرات الجيب والنداء، وقد كان إلى جانب هذا النشاط المنقطع النظير عضواً عاملاً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية، يعد له من البحوث ومواضيع الدرس في كل دورة الشيء الكثير.

وقد ظل المازني يكتب وهو على فراش المرض حتى اللحظات الأخيرة من حياته لم تفتر همته، ولم تخبُ ابتسامته الساخرة من الحياة، فكان يداعب طبيبه قبل وفاته بساعات قليلة قائلاً: «أتخشى أن أموت، فيقال إنك أمت المازني؟».

وهكذا لقي الموت مستهزئاً به ساخراً منه في مساء العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٩.

اعتداده بنفسه

كان المازني شديد الاعتداد بنفسه إلى حد يبدو ظاهراً [illegible] بتفوقه وامتيازه شعوراً قوياً، وهو لا يفتأ يذكر الناس بذلك في كل ساعة تسنح له؛ [illegible] (حصاد الهشيم) فتطالع قوله: «[illegible] — المقالات — شيئاً من العمق و[illegible] ولا أنا أزعمها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها، ولكني أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كان فجاً، وثمرة اطلاعي، وهو واسع، ومجهود أعصابي، وهي سقيمة، بأبخس الأثمان». ثم يقول بعد ذلك: «واعلم أنه لا يعنيني رأيك فيه — الكتاب — نعم يسرني أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثني على بنيه، ولكنه لا يسوؤني أن تبسط لسانك فيه، إذ كنت أعرف عيوبه ومآخذه مثلك، وما أحقني بأن أضحك من القادحين، وأن أخرج لهم لساني إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يعنون وإن كان تحت أنوفهم».

بل إنه يختم كتابه بتلك الصفعة الأدبية يوجهها إلى جمهور قرائه: «إني مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابي هذا، وقانع باستحسان أمثالي من الأوساط المتواضعين، وهم بحمد الله كثيرون في هذا البلد الأمين، بل أكثر مما يلزم لي».

وكأن بالمازني كان يشعر بتفوقه وعظمته كأي عظيم، لكنه شعور زاده عمقاً إحساسه بأنه يكتب — وكان ذلك في أوائل العشرة الثالثة من القرن الحالي — إلى أقلية ضئيلة جداً من المتعلمين وأقلية تافهة من أنصاف المتعلمين الذين عبر عنهم بالأوساط المتواضعين، وأنه وجد في بلد آلى ألا يقدر نبوغه وعبقريته، ولذا فهو يائس من هذا البلد، ويملأ اليأس قرارة قلبه ويردده بين حين وآخر في صيحات يرسلها على الناس لتنبههم من غفلتهم؛ فتراه يقول لقراء كتابه حصاد الهشيم: «هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى، كتبت في أوقات متفاوتة وفي أحوال وظروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح، وقد جمعت الآن وطبعت وهي تباع المجموعة بعشرة قروش لا أكثر.. وتعال نتحاسب: إن في الكتاب أكثر من أربعين مقالاً تختلف طولاً وقصراً وعمقاً وضحولة، وأنت تشتري كل أربع منها بقرش! وما أحسبك سترعم أنك تبذل في تحصيل القرش مثل ما أبذل في كتابة المقالات [illegible] وعيني ومن يومي وأمسي ومن [illegible]

[illegible] إنه يحاسب قراءه عن القرش وعن اللذة الأدبية لا اللذة الروحية ولا الفائدة العقلية، وكأنه يستبعد على هذا القارئ أن يفهم ما يكتب المازني أو يعيه أو يقدر قيمته..

قد يعترض معترض بأن المازني اعتاد أن يركب الناس بدعابته، لكن هذا الاعتراض مردود، لأن أقل تأمل يدرك منه المرء أن المازني كان جاداً في سخريته أقصى الجد وأعنفه، وإنه ليسخر من قراء عصره وثقافتهم، ويمضي في نغمته الساخرة قائلاً: «ثم إنك تشتري بهذه القروش العشرة كتاباً، هبه لا يصير من رأسك خراباً ولا يصقل لك نفساً أو يفتح عيناً أو ينبه مشاعر، فهو — على القليل — زينة على مكتبك، والزينة أقدم في تاريخ معاشر الآدميين الناقصين من النعمة والرق، والمرء أطلب لها في مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه وأكلف بها مما يظن أو يحب أن يعترف. على أنك قد لا تهضم أكلة مثلاً فيضيق صدرك ويسوء خلقك وتشعر بالحاجة إلى التسرية والتفث، وإذا أمامك هذا الكتاب،

فالمعن صاحبه والناشر ما شئت ! فإني أعرف كيف أحول شائلك إلى من هو أحق بها ! ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتكسب به غيرك ... أو تفككه وتلفف في ورقة للشور ما يلف ، أو توقد به ناراً على طعام أو شراب أو غير ذلك .. أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟ » .

ويرجح لدى أن هناك أسباباً أخرى لهذه المبالغة في الاعتداد بنفسه ، ولعل أهم هذه الأسباب شعوره بالنقص ... نقص مرجعه البيئة أولاً ، وقد كان للمازني من بيئة محافظة متدينة لا تريم عن التقاليد الموروثة والعادات القديمة والآداب الدينية ، بينما اندفع هو في ثورة على هذه المواضعات وأخذ نفسه بتعاليم الغرب ، وكأنه كان يخشى النكسة فكان يبالغ بالتظاهر بحريته .

والسبب الثاني لهذا الشعور هو قصر قامته قصراً جعله يريد أن يوهم الناس جميعاً أنه عملاق ... عملاق في الأدب أو عملاق في الآن ، وقد كان شعوره بقصره فادحاً ، وليس أدل على عمق هذا الشعور من هذه الحادثة التي يرويها عن نفسه ، وهي أنه كان أستاذاً في إحدى المدارس الثانوية وكان التلاميذ حينئذ في مدارسنا الثانوية رجالاً ذوي شوارب وأجسام ضخمة — وقد لمحه الناظر ذات مرة واقفاً في فناء المدرسة في وقت الدرس فحسبه تلميذاً فاقترب منه وصفعه على قفاه صفعة أطارت طربوشه ... والمازني يروي هذه القصة وما زال يذكرها برغم اتهامه نفسه بضعف الذاكرة .

ثم هذه الضائقة المالية التي أصابت أسرته بعد فقد أبيه وما عانته هذه الأسرة من شظف العيش ومن ضروب الحرمان ، وما خبره في هذه الفترة من جحود الناس وانعدام روح الخير فيهم حتى قال : « وأحسبني من أسوأ الناس ظناً بالناس ! ومن طول ما وطنت النفس على معاناة الشر والأذى والنكبات والنصائب صرت لا يروعني حادث مهما جل ، والذين يعرفونني يظنون هذا حلماً ، ولكنه ليس من الحلم في شيء ، وإنما هو ثمرة ما تقرر في نفسي من سوء الظن بالدنيا والناس » .

وطبيعي أن المازني إزاء هذه الظروف كان مضطراً للاعتماد على نفسه وعلى مقدرته على مغالبة الحياة ومجالدة ظروفها ، مستقلاً برأيه مستغلاً مواهبه الخاصة ومجهوده ، غير منتظر معونة من أحد من الناس .

وقد نجح المازني في حياته المستقلة هذه ، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يعتز بشخصيته ويترفع عن الناس ، لا سيما من كان يرجو العون عندهم إبان محنته فوجد عندهم الإعراض ، ثم يتحول هو عندما اطمأن إلى مكانه في معترك الحياة عن الإعراض عنهم واحتقار شأنهم حتى قال يوماً : « في الهند طائفة يحترمها بقية الهندوكيين ويعدونها من المنبوذين .. وأنا لا أحتقر أحداً ، ولكن ذوي الألقاب عندي منبوذون — أعني أني أنفر منهم وأكره مجالسهم وأتقي مخالطتهم وأوثر عليهم البسطاء الفقراء بل حتى الجهلاء والأميين ، وأرى لي عطفاً عليهم وحباً لهم وفهماً وإدراكاً لأساليب تفكيرهم وسروراً بحديثهم وإن كان سخيفاً[1] » .

وكان المازني ينفر أيضاً من اعتزازه بنفسه وطريقته في الحياة في معرض حديث عن المجتمعات الراقية وحفلاتها التي كان كثيراً ما يدعى إليها : « إنها مجتمعات حافلة بمظاهر التصنع والرياء والنفاق والتكلف الثقيل ، كلا يا سيدي (يفتح الله) إني أحب النضناض ومجلس القهوة البسيطة أتم بما لا يشعر به إنسان » .

وكان المازني مؤمناً برسالته في الحياة معتقداً أنها أسمى من كل رسالة أخرى في الوجود ، محباً لها ، ولا سيما لما منحته من حرية في التفكير والحياة ، ولذلك كان ينفر من الأحزاب السياسية ، ولا يطيق فكرة الانضمام إليها ، وقد قال عندما طلب منه ذلك : « لقد تركت وظائف الحكومة لأني لا أطيق القيود ؛ فكيف أقيد نفسي بأغلال الحزبية الثقيلة ؟ إني اليوم حر أكتب ما أشاء ، وأقول للمحسن أحسنت ،

---

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ١٩ .

ولنفسي، أسألت ... فدعني بالله من هذه النبوة وتلك الظاهر »[1].

والكتابة عنده أسمى وأرفع من أي وسيلة أخرى من وسائل خدمة المجتمع. ولذلك كان يأبى أن يرشح نفسه للنيابة أو أن ينتمي إليها، وقد قال يوماً: « لقد خلقت كاتباً وسأظل كاتباً أخدم بلادي عن طريق الصحافة[2] » عندما ألح عليه مكان حيه في ترشيح نفسه عنهم.

وأظن أن المازني قد بلغ بذلك أقصى حدود الاعتداد بالنفس والإخلاص لرسالته في الحياة.

* مدرسة المازني

هل كان المازني مدرسة ؟.

إذا كان المقصود بالمدرسة مذهباً جديداً في الأدب أو الفلسفة ؛ فلا أظن أن المازني قد جاءنا بجديد في هذا الباب، وإنما كان المازني قائد جيل من الأدباء.

وقد عاصر المازني فترة انتقال خطيرة في تاريخ الأدب العربية، وكان على المازني وزملائه ... أن يقودوا ثورة على القديم وأن يحطموا الأصنام المنصوبة والمقاييس الجامدة التي أحيط بها الأدب العربي، وأن يزلزلوا عقائد معاصريهم في قدسية كل قديم، ولما كان العمل الأساسي هدماً وتمهيداً لما بعده، وكان على المازني أن يكون معول هدم أولاً ليستطيع أن يبني، وقد كان يدرك دوره وشعره وعمله ؛ فهو يقول في حصاد الهشيم (ص ٣٦٤) في معرض حديثه عن الآنسة مي : « وأنا أيضاً أكتب وأقرض الشعر، فما مصير كل هذا الذي سودت به الورق وشغلت المطابع وصدعت القراء ؟ إنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ؛ فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق وتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم ؛ ومن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ من الذي يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد ؟ » .

وبرغم إشفاقه من الفناء، وعدم خلود الذكر إلا أنه يمضي قدماً في رسالته ويدعو إلى التمرد على الأوضاع القديمة ويلتمس لنفسه العذر من هذا التمرد في حديثه عن ابن الرومي فيقول : « ومصدره من هذا التمرد عذر كل فرد حساس مصقول النفس مثقف العقل، تصطدم عنده الآراء والعقائد بحقائق الحياة وواقع الحال، وليس أقسى من أثر ذلك في النفس ولا أوجع، ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة ؛ فإن الحياة كانت قديماً وما زالت إلى الساعة، وستظل إلى آخر الزمن إن كان له آخر، صراعاً دائماً وجهاداً متواصلاً ؛ وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعي التذمر، وما كان المرء ليتعدى إلى ما بعد هذا — أو قبله — بحدود قدرته وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة أو يعدو هذا الجيل، وقد يعين الجهل أو الغباء على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ؛ فلا يرى المرء ما يضيق به ويضيق عليه إلا عدلاً مقضياً وضرورة لا مهرب منها ولا خير في التبرم بها » .

فهو هنا يعرض بهؤلاء المتفلسفين الواقع القانعين بالدون من الحياة، لكنه هو أحياناً يستشعر التعب من طول عنائه في إفهام الناس أغراضه وأهدافه من كتاباته التي لم يرم بها إلا إلى الإصلاح، فتراه يقول : « ورأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد، من ذلك أني كنت إذا قلت إن حافظاً أخطأ في هذا المعنى أو ذاك، قال بعضهم : (لم يخطئ حافظ وإنما تابع العرب وقد ورد في شعرهم[1] أشباه ذلك) كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرءاً من كل عيب ... إلى غير ذلك مما يغري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول ! » .

« وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالهم في كل شيء، ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لتهم والوارث حق

(١ و ٢) من مقال للمازني بالهلال .

(١) حصاد الهشيم ص ٢٣١

الصرف فيما ترث ؟ هل تطلبك العرب وجريك على أساليبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا ! إذاً فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف تحاكم إلى العقل في الأولى ولا تستفتيه في الثانية ؟ » .

« ولا أنكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة وما للخبرة بنزعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ، ولكنه لا يخفى علينا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والعدول عن الغاية التي يسعى إليها الأدب والغرض الذي يحاوله الشعر والأصل في الكتابة بوجه عام » .

ولعل أهم ما كان يعانيه تشبث القوم باللفظ والتركيب وانشغالهم بالمعنى وكأنه ليس هناك للأدب رسالة في الحياة سوى تجويد صنعة الألفاظ وإتقان أبواب النحو والصرف لا الترجمة عن معاني الحياة وخلجات النفس .

« ولنقرأ معي هذه الصيحة الصادرة من الأعماق وبها يبرز المازني في أسلوب شعري جميل [illegible] نفسه — أهدافه الأدبية [illegible] قالت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه ويجمع آماله ومطامحه التي هي آمال الإنسانية ومطامحها ، ويستوري من زفرات آلامه شيئاً يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أخاً حانياً يؤازره ويعينه على التكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التي ربما التبست على القارئ لفرط جدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستترت في مثاني الكلام » .

« أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من لاعج اليأس خاطر : يا ضيعة العمر ! ألقى على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ! كأني إلى اللفظ قصدت ... وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو أمعنوها نفوسهم بادية في صقالها ، فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإطارها ، وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن ؟ وأفضي إليهم بما يجيء أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون : لو قلت كذا بدل كذا لأصاب الناس مكان ذلك ! مالهم لا يعيبون البحر بأمواج شطآنه وكثرة صخوره ؟ يا ضيعة[1] العمر ! » .

— من هذا ندرك أن المازني كان يعاني رهقاً وشدة في حمل الناس على فهم مذهبه ، وكان من أهم أسلحته — كما أسلفنا في إنشاء الهدم وتحطيم الأصنام وزحزحتها عن قواعدها ، فبدأ بنقد شوقي وحافظ — وكذلك فعل العقاد وطه حسين — وكان ذلك في أوائل عهده بالصحافة سنة ١٩١٣ ، وعرض شعرهما على الناس وأظهر مواضع الضعف فيه حتى يؤمن الناس معه بأن تقديس القديم وهم باطل يجب التحرر منه وبأن الشعر يكون أصدق وأوفى بالغاية إذا عبر عن بيئته واستعمل أدوات عصره .

وقد جمع مقالاته في نقد حافظ وأصدرها في كتاب عام ١٩٢٤ ليعلم الناس على حد قوله مبدأه الجديد الذي يدعو إلى الإقلاع عن التقليد والتنكب عن احتذاء الأولين فيما [illegible] عليه الدهر ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له .

ومع ذلك لم يكن عمل المازني هدماً كله ، بل إنه نصب [illegible] من الأدباء والناس ، يفهمهم ماهية الشعر ومعنى الخيال ويعلمهم لأول مرة في العربية أن المجاز وهو نقل اللفظ مما وضع له في الأصل إلى غيره مما يشاركه في بعض صفاته أو خصائصه ، فالروح في اللغة العربية أيضاً أصل معناها النفس » مخالفاً بذلك ما عرفوا وما طالعوا في كتبهم ، وهو إذ يتصدى للكتابة ترجمة عظيم من العظماء يحاول أن يشرح للقراء أولاً أصول النقد وما يجب أن يأخذ به نفسه من تصدى لتاريخ الناس ودراسة حياتهم .

وهكذا نرى صنعة الأستاذية أو مهنة التدريس تغلب في كتاباته دائماً أو هي ضرورة المناسبة وملابسات العصر الذي عاصره حتمت عليه أن يقوم بدور الأستاذ لتلامذة الأدب في هذا الجيل ... دور الأستاذ الذي يريد أن يحرر تلامذته من قيود التقليد ويأخذ بيدهم إلى طريق تكوين الشخصية الأدبية ويعودهم الاستقلال بالرأي والابتكار والتجديد .

عبد السميع المصري

---

(1) حصاد الهشيم ص ٢٣٣



هذا الهراء الذي يذاع عن الرجال

مقال صريح للنجمة المكسيكية دولوريس دلريو

للآنسة الزهرية

إنهم يصورون الفيل والقال في شكل امرأة — وكان ينبغي أن يصوروه في زي رجل ! وذلك لأن السيدات حين يرغبن بلغو الحديث ، ويتناقشن ساعات ، فلا يجلبن مضرة . أما الرجل فإنه يخوض في الوحل ، ويدوس في [illegible] ويلح على الأسماع وقراً ، ويبالغ في [illegible] الأمراض ، ويتناول الأصحاب ، ويخرج [illegible] والقاذعة ، ويعدو على الناس بالشر ، حين يطلق بالكلام ويشققه ويمده على عواهنه ، ويدرج فيه حتى يلتقط الريبة في صدقه .

ونحن نعلم أن السيدات مرهفات الحس ، ذوات نزعات عاطفية خيالية ، شاعرية . أما الرجال فعلى النقيض .

وكأني بالرجال يعتقدون أن السيدات يرغبن على الدوام في الزلفى لهم ، والتشرف بنيل رضاهم — ولو احدودبوا من الكبر ، ودقت الشيخوخة عظامهم — ولئن كان الرجال عموماً ، يتأذون من السيدات نزوعهم إلى التحبب والمغازلات ، والاستسلام للحدوات النفسانية العنيفة وثوراتها العارمة المؤقتة ، إلا أنهم ليسوا عاطفيين أقوياء الخيال مثلهن . ومعلوم أن الخيال عدو العواطف . والعواطف من شأنها أن تسلط الخيال على الحقائق الجافة العادية الوعرة ، فتضفي عليها وتنسخها نسخاً ، وتصوغ من حطامها صيغة حسنة ، وتفرغ فيها أكثر خصوصه وأكثر حرارته وأروعها !

وكثيراً ما يقول الناس : « إن الرجال لا يشيخون مطلقاً ، بل يظلون أولاداً صغاراً على الدوام — ولو كانوا طوال القامة [illegible] »

ولئن صح قولهم ، فينبغي ألا يفوتهم أن الأولاد الصغار عادة ، لا يحفلون شيئاً غير مرضاة ذواتهم ، وغير الافتيات في أمورهم والجري على هواهم . على أني لست أقصد بهذا الاستدراك — إلى تجريد الرجال من الميزات الفاضلة والخصائص الممدوحة ، فهنالك الشجاعة ، وهي الميزة التي لا يتسم بها إلا أصحاب النفوس العالية الكبيرة ، والأخلاق القوية الراسخة ، ولكنها في الوقت نفسه من شيم النساء !!

وقد رأيت في موطني المكسيك ، سيدات — ذكن مع أطفالهن في بيوتهن القائمة وسط معترك الوقائع الحربية ، وخضم المعامع الدامية — فكن يصمدن في أماكنهن ، ويقمن بفروضهن اليومية والقنابل تتناثر من حولهن ، ووابل الرصاص ينهال عليهن ، ورأيت أن يبدين هلعاً

أو يلتمسن فراراً ! بل لقد كن يردون مقطوعات من الأغاني الخفيفة ، ويتضاحكن ويصطنعن الدعة والطمأنينة ، وكن إذا دكت القنابل أسوار مخابئهن ، وأعجزتهن عن الاحتمال — يسارعن إلى رزم أطفالهن على صهوة الجياد ، ويعتلن السير إلى الجبال ومعهن كمية صغيرة من المئونة وقرطف صغيرة ، ويحافظن على مواصلة الغناء والإنشاد ، ولا يبدين واضحة لخوف أو فزع ..

إن النساء والرجال — على السواء — يلقون أقسى مصائب الحياة وشدائدها ، بفزع قبيح وجأش رابط ، في كثير من الأحيان ، ولكن ترى : أي الجنسين يكون أثبت جناناً وأوفر شجاعة حين تعرض له في وجوده الأحداث الناقهة والمصائب الجمة ؟!

لقد خالطت زمر النساء والرجال — في مغاني الأنس ومرابع اللهو وعلى متن البواخر ، وفي ردهات الرقص والقصف ، وفي منتجعات التشتية والتصييف للمروّحة ، وفي أسرتهم وهم يكدحون ويجدون في معاهد العلم ومدارس التحصيل ، وقد رأيتهم وهم يسعون في تجارتهم ويضاربون في المال ، ويضربون في النواحي ، ويسيرون في المسالك المصمة لتدريب الخيل ورعاية البقر في أمريكا وفي غيرها من بلاد الله ! ولكني وجدت أن النساء كن يتماسكن في حالات الألم والمرض ، ويتجلدن في صمت على مضض الجدة الموجعة وغصص الشكاة المفاجئة الجاهدة ، وكثيراً ما رأيت فيهن من كان يغشاها الداء وتشتد بها العلة ، فتملك من نفسها ما لا يملك سواها ، وما إن تزال في مجاهدة آلامها حتى يرهقها من مواجعها ما يحيى به احتمالها وتخور معه تماسكها ، فيصيبها الإغماء دون أن يلحظ أحد من قبل أنها قد انطلقت بمجاهدة أوشكت أن تخرج أنفاسها .

إن الفتيات في بلادي وفي غيرها من البلاد اللاتينية ، ينشأن على الاعتقاد بأن الرجال قوامون عليهن — وبأنهم دائماً على حق ولا يخطئون أبداً .. ولذا يتحتم عليهن أن يذكرن أن الطاعة لهم واجبة في كل حين ، أما إذا ترعرعن وأصبحن زوجات ، فلا ينبغي أن يقوم نقاش أو حوار أو لدد بين الزوجين ، وليذكرن أن الزوج يقول « كذا وكذا » فتنزع زوجه منزعه — ولو تباينت مذاهبهما — وعليها أن تشايعه صاغرة قريرة ، وتداجيه على السخط والمكره ...

حقاً أن حياة المرأة المكسيكية ليست مما تحسد عليه .. هذا ولا يفوتني أن أذكر أن مزاجي ومزاج زوجي ، قد شقا من نبعة واحدة ، وإني لأوثر أن يراعي تمام الانسجام في الأمزجة ، ودقة التجانس في الطباع عند الزوجين ، لكي يتوافر لهما تبادل التفاهم ، ولكي يتيسر للواحد منهما أن يشارك صاحبه في كثير من الأمور — مع الاستقلال الشخصي — في مودة واحترام ، وأنا شخصياً أعجب بالشيء الذي يستحسنه زوجي « جيمي » كما أنه لا يحرص على الشيء الذي أنفر منه !!

وعليه أقول : « إن التجانس بين الزوجين ، لا بد منه — لكي يتمتع شطرا المجتمع ، فتتوطد من ثم سعادة الشعوب ، وتتوطد وحدة القومية في الأمم » .

الزهرة

مجلس مديرية الجيزة

يطرح للمناقصة توريد (١) الكتب المدرسية (٢) الأدوات المدرسية والكتابية (٣) أدوات النظافة وللطبخ والمفروشات (٤) المطبوعات (٥) عدد الوسق ، وتحدد ظهر ٣ / ٨ / ١٩٥٠ لفتح المظاريف ، وتطلب الشروط من المجلس على عرضحال تمغة تظهير مائة مليم ولكل نوع يضاف إليه ستون مليماً أجرة البريد .

٥٢٦٦